

الباب الثاني

التنبيه والطبيعي

تتمد مفكرى الإسلام

obeykandl.com

إدراك الغيب

عند الأنبياء

العلم النبوي :

الذي عند أهل الكتاب هو الملمم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المقبلة ، ولعل الأصح أن يقال إنه من يتلقى من الله وحياً ، إن أمره بتبليغه كان رسولا^(١) ، وهو عند الأشاعرة من اصطفاه الله من عباده وأرسله لتبليغ رسالته^(٢) ، والرسل قوم اصطفاهم الله من بين البشر وفضلهم بخطابه وفضطهم على معرفته ، وجعلهم وسائل اتصال بينه وبين عباده ، يقوموا بهديتهم ، ويظهر الله على سنتهم الخوارق ، وأخبار الكائنات الغيبية عن البشر مما لا يعلمه إلا الأنبياء بتعليم من الله^(٣) . ذلك أن العلم

(١) السيد رشيد رضا : الوحي الحمدي ص ٢٥

(٢) التبانوي : كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٨ ويقول الأستاذ الإمام في تعليقه على شرح الجلال للعقائد المضدية - بعد ذكر تعريفات النبي - إن النبي يعرف بأنه إنسان فطر على الحق علما وعملا ، لا يحتاج في هذا إلى فكر ونظر ، وإنما يكتبه التعميم الإلهي وقد آخذه على هذا التعريف في نسوة الشيخ مصطفى صبري في كتابه السائف الذكر (ص ٤٠ - ٤١ وهامش ص ١٥٥) لأن التعريف لا يضمن شيئا من خصائص النبوة من وحي ومآك مرسل وكتاب منزل ومعجزة - وإل التمس على التعميم الإلهي في تعريف الأستاذ الإمام يخفف من حدة هذا النقد .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٩ ولكن رأى ابن خلدون في هذا العدد ، يخالف الاتجاه الحديث ، الذي ينكر الكرامات وخوارق العادات ، ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل ، متشعبة مع سنن الكون ، مسابرة لطباع الأشياء ، وبهذا يتمتع وصفها بالخوارق - ويقال إن القرآن وحده هو الحججة القطعية على نبوة الرسول ، وما عداه شبهة لاحجة . وقد تصدى لدفع هذا الاتهام الشيخ مصطفى صبري ، وهاجم من أجه بعض أعلام المخدنين من رجال الدين وغيرهم في مصر .

الإنساني يحصل عن طريقين ، أحدهما طريق الاستدلال والتعلم ويسمى اعتباراً واستبعاداً ، ويختص به العلماء والحكماء ، والآخر يهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري^(١) وقد يسمى بالتعلم الرباني ويكون بطريقتين : أولها إلقاء الوحي في النفس التي كادت ذاتها وزال عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل والرغبة عن شهوات الدنيا والإقبال على بارئها والتمسك بوجود مبدعها ، فيقبل الله بحسن عنايته على هذه النفس ، ويتخذ منها لوحاً كما يتخذ من النفس السكينة قلماً ينقش فيها جميع علومه ، وهذا ما يقع للأنبياء ، أما الوجه الثاني فالإلهام الذي يتوافر للأولياء^(٢) ، وسنعرض للحديث عنه بماد قليل .

ولا يكون العلم الذي يهباً للأنبياء من باب الإلهام أو الظن أو التوهم أو الكهانة أو النجوم أو الرؤيا التي لا يعرف صدقها من بطلانها ، وإنما يكون عن وحي إلهي^(٣) ، وقد قيل إن الوحي شرعاً : إعلام الله لنبي من الأنبياء بحكم شرعي أو نحوه ، ولعل الأصح أن يقال إنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع التيقن بأنه من قبل الله بوساطة أو بغير وساطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه ، أو بغير صوت يبلغ أذنه ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الأخير قد يحصل من الحق بغير وساطة الملك وهو من خواص الولاية^(٤) ، أو هو وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى

(١) معالي الأستاذ مصطفى باشا عبد الرزاق : تعليقه على مقال التصوف بدائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية)

(٢) الغزالي ، الرسالة المدنية ص ٣٩ - ٤٣ - الطبعة الثانية عام ١٣٤٣ هـ

(٣) ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ج ٥ ص ١٧

(٤) ابن العربي ، غصن الحكم ص ٣١ وما بعدها وانظر مختلف معاني الوحي في مادة

Wahy للأستاذ « غسنك » A. J. Wensinek في دائرة المعارف الإسلامية

ما يطلب من غير شهور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجودان الجوع والمطش والحزن والسرور^(١) ومن هنا قيل في التفرقة بين الأنبياء والأولياء : إن العبد إذا لم يدر كيف حصل له العلم ومن أين حصل ، سمي عليه إلهاماً ونفثاً في الروح ، وكان هذا خاصاً بالأولياء ، فإن اطالع المرء مع هذا العلم على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب ، سمي العلم وحياً وكان خاصاً بالأنبياء ، وإن كان العلم في الخالين يحصل في القلوب بوساطة الملك^(٢) ، وإن قيل مع هذا إن الإلهام ليس مقصوراً على الأولياء ، فإن الوحي الظاهر ثلاثة أصناف : أولها ما ثبت بلسان الملك كالقرآن ، وثانيها ما وضع بإشارة الملك من غير بيان بالكلام ، ويسمى خاطر الملك ، وثالثها الإلهام ، والأنواع الثلاثة حجة مطلقة ، وهذا بخلاف الإلهام ، فإنه لا يكون حجة على غيره^(٣) ، والإلهام بهذا المعنى وارد غيبي من الله المؤثر في كل شيء^(٤) ولكن قوماً من مثبتى النبوات منموا أن تكون النبوة عن خطاب أو نزول ملك ، لانتهاء المخاطبة الحسبانية عنه تعالى ، لأنه ليس بجسم ، والملائكة لا يهبطون لأنهم من العالم العلوى وهو بسيط ، كما أن العالم السفلى كثيف لا يعاين ، واختلف أصحاب هذا الرأي فيما أدى إلى النبوة عند أهلها ، فقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء بالإلهام لا بالوحي ، وهذا فاسد عند البعض ، لأن الإلهام خفي غامض يدعيه الحق والمبطل . وقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء لأن الله اصطفاهم وأكسبهم ما له من

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٠٨ وما بعدها

(٢) الغزالي في الأحياء ج ٣ ص ١٦ (الطبعة الأولى عام ١٣٥٢ هـ)

(٣) التهانوي ، كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٥٣٣

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٣٠٨

خواص وأسرار تخالف مجرى الطبايع ، وهذا فاسد أيضا ، لأن إخفاءها غير دليل على صدقه ، ثم إنه يكون نبياً عن نفسه لا عن ربه ، وعندئذ يصبح كغيره^(١) .
وعلى هذا فالوحي في معناه العام : إنباء عن أمور مفيدة عن الحس ، يقدم في النفس دون كائنة ولا قصد^(٢) ، ويرى فلاسفة الشريعة أن النبي من اجتمعت له خواص : أولها أن يكون ذا اطلاع على الغيب الذي طواه الماضي ، أو أخفاه المستقبل ، وليس المراد أن يطالع على كل شيء ، بل حسبه أن يعرف بمضنه ، وليس المراد أي بعض كان ، بل المقصود ما لم تجر به العادة دون أن يسبق ذلك تعلم أو تعليم^(٣) . ومن هنا قيل إن الأنبياء يطالعون على الغيب بوحي إلهي لا شك في صدقه ، وقد قيل إن الله يختص برحمته من يشاء من عباده ، فلا يشترط فيهم شرط ولا استعداد ذاتي ، وإن كان المعروف عند المسلمين ، أن النبوة لا تجيء اكتساباً^(٤) .
ولسكن كيف أثبتوا إمكان الوحي ... ؟

إطار الوحي :

هذه نقطة عاجلناها في الباب السابق^(٥) وحسبنا أن نضيف الآن إلى ما قلناه ، أن بعض النفوس - فيما يرى البعض - فيها استعداد فطري لذلك ، وليس في هذا

(١) الماوردي : أعلام النبوة ص ١٦ - ١٧

(٢) إخوان الصفا : ج ٤ ص ١٤٤

(٣) التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٩

(٤) مصطفي صبري : القول الفصل ص ١٤٧ وما بعدها (طبعة القاهرة ١٣٦١ هـ)

(٥) عند الحديث على « مذاهب المفكرين في تفسير الوحي والالهام » وكذلك « علة الإدراك الغيبي » في الفصل نفسه ، ثم قارن في الفصل التالي ما ذكرناه عن « إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفي » .

يدع ولا عجب ، إذ أن البديهة تشهد بأن درجات العقول متفاوتة ، يعاوب بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وليس ذلك لتفاوت المراتب في التسليم وحده ، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، وهذه المقدمات تسهنا لا محالة إلى القول بأن من النفوس البشرية ما يكون له من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستمد به ، من محض الفيض الإلهي ، لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله وتحسسه بالدليل والبرهان^(١) . والملاحظ أن النفوس قسمان : أحدهما يعوزه التعاليم ، وثانيهما غنى عنه بفطرته ، وما يحتاج إلى التعلیم منه ما يتأثر به وإن طال تبعه ، ومنه ما يصيب العلم سريماً في غير إبطاء ، ومن الناس من يستنبط الشيء من ذاته ، دون حاجة إلى معلم ، وليس ذلك ببدع ، فإن أول معلم لم يسبقه معلم ، وإنما ارتقى إلى العلم بنفسه ، دون الاستعانة بكائن ما ، ذلك أن النتيجة تخطر بباله «فيتنبه للحد الأوسط ، كأنه الذي في نفسه من حيث لا يدري ، أو يبتدر للحد الأوسط فتحضر النتيجة ، كن نظراً إلى سقوط الحجر إلى أسفل ، فخطر له أن الحجر ما كان ليهوى لولا اختلاف الجهتين ثم يخطر له أن اختلاف الجهتين لا يكون إلا في البعد عن جسم والترب منه ، ولا يمكن تصور هذا إلا بمحيط ومركز ، فيستنتج من هذا أن السماء محيطية ، ولا بد من وجودها ، ومثل هذا غير محال ، وإذا خطر فليس بمحال أن يتمدى إلى آخر المقولات . » إما في زمان طويل أو قصير « فمن انكشفت له مثل هذه المقولات في زمان قصير ، وإن تعلم على معلم أو كتاب أو نحوه ، كان نبياً ، وكان هذا معجزة له ، وهذا ممكن ومعقول ،

(١) محمد عبده : المصدر السالف ص ١١٠ - ١١١

فإن بين المتماثلين من يسبق إخوانه مع قلة جهده ، وتساوى مدة التمايم عند الجميع ، لأن شدة حدسه وقوة ذكائه ، تمكنه من التفوق عليهم ، وإن قل عنهم اجتهاده ، وإن صح هذا فالزيادة فيه من الممكنات (١) .

وفي بعض النفوس قوة لا تشغلها الحواس ، ولا تستوعبها بحيث تستغرقها وتمنعها عن أداء وظيفتها ، وقد تقوى حتى تجمع بين الكتابة والكلام في آن واحد ، ومثل هذه النفوس قد يفتر عنها شغل الحواس ، فتطالع إلى عالم الغيب ، وتكشف بعض مجاهله في سرعة البرق الخاطف ، وهذا النوع من النبوة ، فإن ضمفت الخيالة وعت الذاكرة ما انكشف للنفس ، دون أن تضيف إليه شيئاً أو تحذف منه شيئاً ، فيكون وحياً صريحاً لا يعوزه التأويل ، وإن قويت الخيالة انعكست الآية ، وشابه الحال الرؤيا التي تحتاج إلى تعبير (٢) .

تلاقي النبوة والفلسفة :

والعالم الذي يجيء عن طريق الوحي ، لا يختلف في نتائجه عن العالم الذي ينتهي إليه النظر العقلي والاستدلال المنطقي ، وإن اختلف الطريق في كل منهما ، ومن هنا تلاقت النبوة والفلسفة ، إذ قيل إن المعرفة التي تجيء عن طريق الوحي ، إن قابليتها صاحبها بما عند العلماء من حقائق ، ألفاها على اتفاق معها ، لأن العليل والمبادئ واحدة ، فإذا أخبر بها من وصل إليها من أسفل بالفلسف ، اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة ، وبادر الفيلسوف إلى قبول ما يأتي به النبي أو الكاهن ،

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٧ - ٣١٨ - الطبعة الأولى عام ١٣٣١ هـ

(٢) الغزالي : في المصدر السابق ص ٣١٢

لأنهما على اتفاق ، والفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل ، أما الآخر فقد انحط من علٍ ، والمسافة بين السطح والقرار واحدة ، ولكنها بالإضافة إلى من بالقرار تسمى صعوداً ، وبالإضافة إلى من في السطح تسمى هبوطاً ، والأنبياء في هذا كله متفاوتون ، فقد يكشف أحدهم ما يطويه المستقبل بعد قرن ، ويكشف غيره ما تخفيه عشرة قرون تالية^(١) ، كما يتفاوت الفلاسفة في معرفة الحقائق وسبر غورها^(٢) .

نماذج من نبوءات رسول الله :

نبوءات الرسول كثيرة، فحسبنا أن نتخير القليل منها ، مما ورد في القرآن الكريم:

١ — « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفٌ يمون في بضع ستين... » سورة الروم - قاتلهم الفرس المجوس في أرض العرب ، حتى وصلوا طريق الحجاز وغلبوهم حتى بلغوا المدائن ، ونسكن الوحي قد نزل على رسول الله يقول إن هذه الهزيمة ستتحول نصراً ، في بضع سنين ، هي ما بين الثلاث والعشر - الله يعلم السنة واليوم والساعة التي سيقع فيها النصر ، وقد أنبأ رسوله بذلك ، ولكنه لم يأذن في إظهاره لأن الكفار كانوا معاندين ... الخ^(٣)

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١٠٣ - ٤ وانظر في تشابه غاية الدين والفلسفة : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لعالي مصطفي باشا عبد الرازق - ومصادره التي رجع إليها ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ساور الشك بعض المستشرقين من منكري الوحي الالهي ، وقد تولى الرد على شبههم السيد رشيد رضا في الوحي الحمدي ص ٩ وما بعدها وعالي الدكتور هيكل باشا ص ٤٠ - ٤١ من كتابه حياة محمد في طبعته الثانية .

(٣) الرازي : مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٤٦٦ وما بعدها . وقد أورد القاضي أبو الفضل عياض في مخطوط له « شننا بتعريف حقوق المصطفى » - ٢١١٩٩ ب بدار الكتب - أمثلة كثيرة ، بالغ فيها حتى قال إن الرسول قد تنبأ بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة . . ! انظر من ظهر ورقة ٩٣ - ورقة ٩٦)

٢ - وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ... سورة النور آية ٥٥ .

أنبا النبي أصحابه بأن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، سيكونون الخلفاء والغالبين والمالكين ، سيفتخون بعهده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر ويستولون على ملك كسرى وقيصر ... كما استخلف من قبل زمن داود وسليمان عليهما السلام ، ويمكن لهم دينهم فيؤيده بالنصر والاعتزاز ، ويبدلهم بعباد الخوف أمناً ، فيكفل لهم النصر على أعدائهم والأمان من شرهم ... الخ (١)

٣ - وقد أشرنا إلى أن البعض يقول إن رؤيا الرسول وحي إلهي ، والله تعالى يقول : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ... الآية سورة الفتح آية ٢٧

رأى الرسول أن المؤمنين سيدخلون مكة ويتمون الحج ، ولم يعين وقتاً له ، ولما قص رؤياه على المؤمنين ، ظن أن دخولها سيكون عام الحديبية ، ولكن الله يعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح ، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حاقنا ، فقال تعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ... (٢)

حسبنا هذه الإشارات الموجزة ، إلى بعض نبوءات الرسول كما وردت في التراث الإسلامي . ولكن لنا ملاحظة ينبغي أن نقف عندها قليلاً :

(١) المصدر السابق ص ٢٨٧ - ٢٨٨ والسيد رشيد رضا في الوحي المحمدي .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٣٩٧

الفراءه والعلم :

التمس بعض المحدثين من مفكرى الإسلام فى القرآن ، نوعاً غريباً من العلم بالغيب ، فقالوا إن القرآن نذباً بجميع مخترعات العلم ومكتشفاته ، وكافة ما وصل إليه وما يمكن أن يصل إليه البحث العلمى من أصول .. ! وأسرف أصحاب هذا النزوع إسرافاً ملحوظاً ، وحمّلوا ألقاظ القرآن فوق ما تطيق ، وكاد بعضهم أن يحوّل كتاب الله إلى كتاب فى علم الفلك أو الطب أو الطبيعة أو غيرها ... ! وأيد هذا الاتجاه « الكواكبى » ومحمد عبده ، وفريد وجدى ، والدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل وغيرهم من المعاصرين فى مصر على ما يعرف القراء .

والرأى عندنا - مع تقدير وجه الإخلاص عند هؤلاء المفكرين - أن محاولاتهم للبرهنة على أن كل ما يجيّد فى مجال العلم ، متضمن فى نصوص القرآن ، إخراج للدين عن نطاقه ، وإسراف قد يضر ولا يفيد ، لأن حقائق الدين ثابتة لا تتغير ، وحقائق العلم تنطور مع الزمان ، وتتغير بتقدم النظر العقلى ، وترقى منهج البحث العلمى ، فإذا كنا سنربط الدين بالعلم ، كان معنى هذا أن تتغير المعانى التى تحملها آياته ، تبعاً لتغير النظريات التى ينتهى إليها البحث العلمى ، وقد علق أستاذنا الدكتور طه فى مقال ممتع له ، على محاضرة حاول الشيخ محمد بخيت أن يستنبط فيها من نصوص القرآن : كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الليل والنهار ... الخ (١)

وقال إن الأستاذ « نوردمان » Nordmann قد وضع فى السنين الأخيرة كتاباً

عن مملكة السموات ، انتهى في فصل منه إلى استحالة البرهنة على دوران الأرض بطريقة علمية قاطعة .. ! ثم عقب الدكتور على هذا بقوله : إذا انمقد الإجماع على أن الأرض لا تدور ، كما كان منعقداً على ذلك منذ قرون ، وحين نزل القرآن الكريم ، فأين تذهب جهود العلماء الذين حاولوا هذا النوع من التوفيق .. ؟

بين الدين والعلم في هذا الصراع :

هذه المحاولات ليست جديدة في تاريخ الملاقة بين الدين والعلم ، فشت في العالم المسيحي ، منذ أخذ رجال الدين أنفسهم بالتوفيق بين نظرية بطليموس وموقف المسيحية من ثبات الأرض ودوران الشمس حولها .. ! فلما استيقظ النظر العقلي ونهض البحث العلمي ، وابتعث كوبرنيكوس + ١٥٤٣ وجاليليو + ١٦٤٢ رأى متأخري الفيتاغورية من أمثال أرسطرخوس + ٣١٠ ق.م في دوران الأرض المزدوج ، ناهضت الكنيسة هذه الدعوة ، وارتكبت فظائعها مع رواد الفكر الحديث ، حتى إذا استقر العلم عند الرأي الأخير ، أخذ رجال الدين يجاهدون في سبيل التوفيق مرة أخرى ، بين هذا الرأي الحديث ونصوص الكتاب المقدس .. ! ولم تزل بعد تفاصيل هذه الأحداث وأمثالها ، مثار السخرية عند جمهرة المؤرخين ، فمن الحكمة ألا تزل في خطأ زل فيه غيرنا ، وأن نتخذ من سقطات السابقين عبرة وعظة .

منابع التفكير الإسلامي في الوحي : سوفف الفرآر السكريم :

من الطبيعي أن أتبع هذه الأفكار السالفة في القرآن ، فإن الدين لا يستقيم بغير النبوة والوحي ، والملحوظ أن تعريف الوحي على النحو الذي أسلفناه ، مأخوذ عن الآية السكريمة التي تضمنت أنواعه الثلاثة : إلقاء المعنى في القاب ، والكلام من

وراء حجاب ، وما يلقيه مثلك الوحي المرسل من الله في صورة ما ، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه على شئ حكيم ^(١) »

وأما إدراك النبي لعالم الغيب دون تعلم أو تفكر ، فإن هذا مرجعه إلى قول الله لنبيه الكريم ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، أي بغير وساطة ما ، وتشهد بهذا قصة آدم الذي لم يكتسب علماً ما ، والملائكة الذين حصلوا من العلم ما جعلهم أعلم الموجودات طوراً ، فلما فاخرته ، قال ، أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ... إلى آخر ما يذكره الغزالي للتدليل على ارتفاع العلم الرباني على العلم الإنساني ^(٢) . أما إمكان الوحي وتفسيرهم العقلي له ، فقد يكون وليد تفكيرهم ، وربما دخلت هذا عناصر من تراث قديم وصل إليهم ، والملاحظ أن الفارابي الذي شاد نظرية اتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وإدراك الغيب عن طريق هذا الاتصال ، قد استمد الكثير من عناصر هذه النظرية ، من نظرية الفيض أو الصدور عند « أفلوطين » كما صورها الفارابي في بعض رسائله ^(٣) . وقد جرى على نهجه ابن سينا في تصوير هذه النظرية ^(٤) .

(١) سورة الشورى آية ٥١

(٢) الغزالي : الرسالة اللدنية ص ٣ ؛ ويلاحظ أننا نؤرخ ما يقول ، دون أن نؤيده ، لأنه لا يوثق به كحدث .

(٣) الفارابي : مقالة في معاني العنل نشره الأب يويج وتصويباته .

(٤) فلان ما سنذكره في تحليل الرؤيا الصادقة ، استناداً إلى إشارات ابن سينا ورسالته في النبوات ثم انظر ص ١٢٩ - ١٣١ من كتابنا « الأحلام » .

صوفى اليونان والرومان من الوحي :

عرف هؤلاء ما يشبه أنواع الوحي الثلاثة التي وردت في القرآن ، فالكلام بحيث يسمع النبي ولا يرى كما وقع لموسى ، قد وقع لسقراط كثيراً ، وكان الصوت كثيراً ما يمنه من الإقدام على عمل ما ، وإن كان لا يدفعه إلى عمل ما ، وأحداثه في ذلك كثيرة تعيها كتب سيرته^(١) ، ولم يقع هذا لسقراط وحده . . . وكما وقع لليونان ، كان يحدث للرومان ، وكثيراً ما كانت تسمع هذه الأصوات المنذرة الزاجرة في أخرج الأوقات^(٢) .

وظهور الملك ، وهو ثانی أنواع الوحي ، قد يتجسم في صورة رجل مثلاً ، وقد قيل إن أطيف الآلهة ، كثيراً ما كانت تظهر وكأنها مجسمة في مادة - مع أنها مفارقة لها ، وقد تظهر أحياناً غير متقومة في مادة^(٣) .

أما النوع الثالث ، وهو إلقاء المعاني في النفس دون تعلم ، فقد كان مألوفاً شائعاً ، إذ أوتى البعض ملكة التنبؤ بحيث يستطيع أن يرى ما لا تراه العيون ، ويسمع ما لا تسمع الآذان ، وقد كانت كاهنة داني وغيرها من هذا الصنف .

وأشياء القدرة على الإدراك الغيبي ، كانوا يرون في تفسير هذا الوحي ، ما يشبه آراء المسلمين في هذا الصدد ، إذ قالوا إن في باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما - وهم يعزونها إلى الوحي - وبهذه القوة تتمكن النفس من كشف الغيب

(١) قارن شيشرون في الفقرة ٤ هـ من الكتاب الأول و « بلوتارك » في حديثه عن شيطان سقراط (قارن تعليق « لوب » على هذه الفقرة) .

(٢) قارن المصدر السالف في الفقرة الخامسة والأربعين .

(٣) قارن المصدر السالف في الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول .

المحجب ، متى أدركها الجذب الإلهي ، أو جردها النوم من علائق الجسد^(١) وقالوا كذلك إن النفوس على خلاف وتفاوت في طبيعتها ، وأنها أقوى مما تكون في الرائيين والسرائين ومن إليهم^(٢) .

وهكذا نلاحظ قيام انتشابه بين آراء اليونان والرومان من جهة ، وآراء المسلمين من جهة أخرى ، وإن كان هذا لا يبرر الجزم بنقل أولاء عن هؤلاء ، مادام القرآن قد استوعب بذور آراء المسلمين كلها على وجه التقريب ، وستعرض لبقية وجوه التقابل بين الفريقين ، عند الكلام على منابع التفكير الإسلامي ، في إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفي .

(١) المصدر السالف في الكتاب الثاني في الفقرة الثامنة والأربعين والفقرات التي تليها .

(٢) قارن المصدر السالف في الفقرة السادسة والثلاثين من الكتاب الأول .

إدراك الغيب

عند أهل الكشف الصوفي ومن إليهم

علاقة الولاية بالنبوة :

من المتصوفة من رفع الولاية إلى مرتبة النبوة ، ومنهم من فصل بينهما بفروق شكلية ، لا يكاد المرء يلاحظها ، ومنهم من أثرها على النبوة ، وخاضع على الولي من قدس الصفات مالا يتوافق في الأنبياء ، وأهل تفصيل هذا يمكننا من أن نفهم مدى اطلاع الأولياء على عالم الغيب ..

الولاية بمرتبة النبوة :

يرى المعتدلون من الصوفية أن الولاية دون النبوة ، ويصرحون باستئثار الأنبياء بالوحي ، واستئثار الأولياء بالإلهام ، ويقررون بأن الإلهام دون الوحي ، ومن أجل هذا كان الولي دون النبي^(١) والولاية درجة مختصرة من النبوة^(٢) ، ويرون أن الأنبياء يمتازون على الأولياء ، بأنهم يعرفون مصدر العلم الذي يهجم على قلوبهم ، ويتبينون كيفية حصوله ، ويرون الملك الذي يلقى بالعلم إلى نفوسهم^(٣) .

(١) الغزالي : الرسالة اللدنية ص ٤٣ وردد أقواله ابن خلدون .

(٢) الغزالي : كيمياء السعادة ص ١٤ طبعة عام ١٣٤٣ هـ

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٣ ص ١٦

الولاية صنو النبوة :

ولكن المتطرفين من الصوفية لا يسمون بهذا الرأي فيما يظهر ، بل يرفعون الولاية إلى مرتبة النبوة ، بل يجاملون النبوة دون الولاية ... فهم يقولون إن الولاية صنو النبوة ، لأن من الوحي ما ياتيه الله إلى البشر من غير وساطة ، فيُسمعهم في قلوبهم حديثاً لا يأخذه ولا يصوره خيال ، ولا يعرفون مصدره ولا سببه ، ولكنهم مع هذا يعقلونه ويدركون ما به^(١) بل ليست الولاية في واقع الأمر إلا باطن النبوة^(٢) لأن النبوة ظاهرها الإنباء وباطنها التصرف في النفوس بالحق ، وإجراء الأحكام عليها - وهذا هو الولاية^(٣) ، والنبوة قسمان : نبوة تشريع ونبوة ولاية ، فالنبوة كالرسالة من حيث أنهما قد انقطعتا من وجه ، هو مسمى النبي والرسول ، ولهذا قال النبي : لا رسول بعدي ولا نبي^(٤) ، وقصد بذلك أن ليس بعده مشرع يحلل ويحرم^(٥) ، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بمات الرسول^(٦) ، وبقيت نبوة الولاية ، وهي مجرد إخبارات إلهية يجدها العبد في نفسه ، من وجوه الغيب أو تجليات لا يتعلق بها حكم يحلل شيئاً أو يحرمه ، وتكون بغير روح ملكي^(٧) ، ولا يسمون

(١) ابن عربي : الفتوحات المكية ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ وإن كان هذا لا يتنافى مع رأى الغزالي السالف الذكر .

(٢) ابن عربي : فصوص الحكم ص ٣٩

(٣) التهانوي ، كشف الاصطلاحات ج ٢ ص ١٥٢٨ ، ١٥٢٩

(٤) ابن عربي : الفتوحات ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

(٥) المصدر السالف ص ٧٠ و ٤٩٤

(٦) المصدر السالف : ص ١١٨ وقد ردد رأيه الشعراي في اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٢٢

(٧) ابن عربي : الفتوحات ص ٣٣٦ - ٧

بأن الأولياء لا ينزل عليهم ملك ، ويزعمون بأن الملك الذي ينزل عليهم هو ملك الإلهام ، وقد فصل ابن عربي ضروبه وعاب على الغزالي قوله : إن الملك ينزل على نبي ولا ينزل على ولي ، وردّ خطأ الغزالي في ذلك إلى عدم الذوق ؛ وزعم بأن ملك الإلهام قد نزل عليه ، وإن لم يحمل أمراً ولا نهياً^(١) ، وردد تلامذته رأيه^(٢) مع أن الغزالي فيما يلوح لنا لم ينسكرك الملك ، وإنما أنكر رؤية الولي له ، إذ قال « فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة »^(٣) ، ويقرر في مكان آخر بأن الاتصال بالله إما أن يكون مباشرة أو بواسطة ملك^(٤) .

الولاية أسمى من النبوة :

بل إن ابن عربي لم يكتف مع تلامذته بذلك ، بل ضمت آثارهم نصوصاً تنبئ بإشارة الولاية على النبوة ..!!^(٥) فالنبوة تقوم في هذه الدنيا ، أما في الآخرة فإن التشريع ينقطع وتبطل أحكامه ، وهناك يظهر أن الولاية خير من النبوة .. ! وقد سمي الله نفسه ولياً ولم يسم نفسه نبياً ، ولله عباد ليسوا بأنبياء ، ولكن النبيين يغبطونهم بمقامهم ، فهم بغير أتباع لفنائهم في الدعاء لله ، فإذا حل يوم البعث لم يدر كهم الفزع على أنفسهم أو أممهم ، كما هو الحال في أنبياء التشريع^(٦) ، وليس ينبغي أن يقال للولي إنه وارث ، لأنه لا يرث النبوة عن نبي ، ولكن الحق يأخذها

(١) المصدر السابق : ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٩

(٢) الشعرائي ، في اليواقيت ج ١ ص ٧٤ - ٧٦ طبع المطبعة الميمنية ١٣١٧ هـ

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٣ ص ١٦

(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٦٢

(٥) ينبغي أن ننس في هذا الصدد ، على أن في كتب ابن عربي والشعرائي نصوصاً كثيرة أخرى ، تنص صراحة على أن الولاية في كل صورها أدنى من النبوة .

(٦) الشعرائي : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٨٠ ، وابن العربي في الفتوحات ص ١٦٥

أولاً ثم يردّها للولى ، ليكون ذلك أتم وأكمل في حق الأولياء ، إذ يأخذون علمهم عن الحى الذى لا يموت ، ولا يأخذونه ميتاً عن ميت (١) .

إلى هذا ذهب المتطرفون من المتصوفة ، فى بعض ماضمت آثارهم من آراء ، وإن كانوا - فيما يلوّح - يخشون الاتهام بالزندقة ، ويرهبون مغيبة التصريح بهذه الآراء ، فيقررون فى مواضع أخرى ما ينقض دعواهم ، ويصرحون بأن الولاية بالغاً ما بلغت ، إنما تستمد من النبوة نورها ، ولا تلحق نهايتها بداية النبوة أبداً (٢) .

هذه هى علاقة الولاية بالنبوة عند أهل التصوف ، ومنها ترى أنهم رغم تفاوتهم فى تقدير الولاية ، فهم على اتفاق فى ربطها بالنبوة ، وتقرير العلم الذى يجىء أهلها إلهاماً وكشفاً ، دون نظر عقلى أو استدلال منطقي .

الكشف عن الصوفية (٣) :

الكشف اصطلاحاً : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية والأمر الحقيقية ، وهو صورى ومعنوى ، والأول يقع فى عالم المثال من طريق الحواس الخمس ، عن طريق المشاهدة أو السماع كما وقع للنبي ، حين كان يسمع الوحي كلاماً أو كصاصلة الجرس ، أو على سبيل الاستشفاف وهو التسمم بالنفحات الإلهية ، والتنشق لفتوحات الربوبية ، أو على طريق الذوق ... وأما الكشف الصورى فقد يتصل بالأمر الدنيوية ، فيسمى رهبانية ، لاطلاع أهله على الحوادث الدنيوية بحسب

(١) ابن عربي : الفتوحات ص ٣٣٥ ويردد الشعراني أقواله

(٢) الشعراني : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٦٤

(٣) قارن « إمكان الوحي » فى الفصل السالف ، و « علة الإدراك الغيبي » و « مذاهب

المنكرين فى تفسير الوحي » فى الباب الأول من هذا الكتاب .

رياضتهم ومجاهداتهم ، وهذا استدراج ومكر بالعبد ، ولعلنا نقع هذه المكاشفات مجردة من الاطلاع على المعاني الفيضية . وأما الكشف المعنوي المتجرد من صور الحقائق ، الحاصل من تجليات الاسم العليم والحكيم ، فهو ظهور المعاني الفيضية والحقائق العينية ، وهو أيضاً مراتب كالحُدس والنور القدسي ، وقد فصل ابن عربي في شرح هذا كله (١) .

وقد جرى الصوفية على القول بالعلم الذي يجيء عن طريق الكشف ، في مقابل العلم الذي يجيء عن طريق البحث والبرهان ، ويشبه الكشف عندهم « العيان » و « الذوق » و « الحُدس » و « الإلهام » وهي ألفاظ شائعة في كتب الصوفية من الغزالي والسمهروردي والشيرازي وغيرهم . وهم يرون أن النفس إذا انجذبت تجافت عن دار الغرور ، وأقبلت على السلوك إلى الله - كما يقول الغزالي ، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجذب عند الكلام على منابع التفكير الإسلامي .

عوائق الكشف الصوفي :

وإذا كان الله تعالى يصطفى الرسالة والنبوة من شاء من عباده ، دون شرط أو اعتماد ذاتي على نحو ما عرفنا من قبل ، فإن الثابت عند مفكرى الإسلام ، أن النفس بطبيعتها مهيأة لقبول الوحي والإلهام معا ، معدة لارتداد مجاهل الغيب المحجب ، متى تخلصت من علائق البدن في بقضة أو منام ، لأن على القلب غشاوة من شهوات الجسم ومشاكل الدنيا ، وإنما تنقشع عن عيون الأنبياء والأولياء الممتازين ، بهذا تحصل المعلومات بإلهام إلهي لبعض القلوب على سبيل المبادأة أو المكاشفة ، وأقصى

(١) ابن العربي : فصوص الحکم س ٢٨ - ٣١ (شرح الشيرازي)

الرتب في ذلك رتبة النبي الذي تنكشف له الحقائق دون تكاف أو اكتساب^(١) ، وما منعت أنوار العلوم عن القلوب ، لأن الله ضنين بها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولكنها تحتجب لحبث القلب وكدره ومشاغله الدنيوية ، والقاب التي تمتلئ بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، لأن القلوب كالأواني إن امتلأت بالماء لم يدخلها الهواء^(٢) ، وليس هذا وحده الذي يعوق الكشف ، فإن القاب محل العلم ، وهو بالإضافة إلى الحقائق كالمراة بالإضافة إلى صور الأشياء ، فقد يمنع ظهور الصور فيها نقصان صورة المراة أو صدوها وكدورتها أو عدم مواجهة الصورة للمراة ، أو لوجود حجاب بينهما ، أو للجهل بجهة الصورة ، وكذلك الحال في القاب ، لا تنكشف فيه الحقائق لنقصانه - كقلب الطفل ، أو لما يملوه من شهوات تطغى إشراقه ، أو انصرافه إلى غير الله ، أو قيام حجاب من اعتقادات تقليدية جمدت في النفس ، وصارت حجابا يمنع من كشف شيء يخالف ما تلقاه تقليدا ، وقد حجب هذا أكثر المتكلمين والمتعصبين للذاهب ، وجل الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأراضين ، وقد يمنع الكشف جهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب^(٣) .

طريقة الكشف عند الصوفية :

هذه هي عوائق الكشف الصوفي ، فإذا اتقينا شرها ، أمكننا أن نباع مرتبة العرفان التي يباغها الأولياء ، لأن الأصل في الولي أنه الواصل إلى مرتبة العرفان ، عن الطريق الموصلة إلى سبيل تلك المرتبة في عرف الصوفية ، والواصل إليها تنكشف

(١) الغزالي : الإحياء ج ٣ ص ٧

(٢) المصدر السالف ص ٨

(٣) الغزالي : الإحياء ج ٣ ص ١١ و ١٢

له الحجب ، ويشهد من علم الله ما لا يشهد سواد^(١) وهذا أمر ميسور ، لأن النفس البشرية بطبيعتها مهيأة لقبول الإلهام ، كما هي معدة لقبول الوحي ، وتكون أعظم استعدادا لذلك كلما كانت أصفى جوهرًا وأذكى فهما ، فهنا تكون أخلاق المرء وسجاياه ، أدنى إلى أخلاق الكرام وأشبه ، ويكون مذهبه واعتقاده أشد تحققا باعتقاد الأنبياء ومذهب الحكماء ، وتكون أعماله وسيرته أشد شبيها بأفعال الملائكة وسيرتها ، بهذا يسهل فهم النفس لوحي الأنبياء وإلهام الملائكة . ولما كان هذا كله يتفاوت قوة وضعفا ، فقد تفاوتت النفوس بين الأنبياء والصدّيقين والمؤمنين الأبرار ، وهكذا تفاوتت النفوس في مراتب النبيل ، وبالتالي في الاستعداد لقبول الوحي والإلهام ، والاطلاع على خفايا الغيب المحجب ، وطريق ذلك أن يصلح المرء ما فسد من أخلاقه في صباه ، وأن يلتزم السلوك العادل في تصرفاته ، ثم ينظر في العلوم الحسية حتى يحسنها ، ثم في الأمور العقلية حتى يجيدها ، ويستغلها في طرد الفاسد من آرائه ، بهذا يرقى إلى العوالم السمائية ، فما يمنع النفس عن الارتقاء إلى ملكوت السماء ، إلا نوازع الجسد وتماق النفس به ، واستعباد شهواته لها^(٢) فإن المرء الذي يدين بطاعة الله علما وعملا ، متى فاضت نفسه ، نجت من بحر الهوى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتفعت إلى عالم الأفلاك ، وأضحى ملكا بالفعل ، والملائكة لا يساهون إلا على أبناء جنسهم ، ولا يخاطبون إلا من شاكلهم ، شأنهم في هذا شأن الإنسان الذي لا يتبادل التحية مع حيوان أو جماد . وإذا كان الله يذكر

(١) القشيري في رسالته ومصطفى باشا عبد الرزاق في تعليقه على مقال التصوف للأستاذ ماسينيون بدائرة المعارف الإسلامية - وقارن مختلف معاني الولي ، في مادة Wali للبارون « كارادي فو » Carra de Vaux في دائرة المعارف الإسلامية

(٢) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٧١ - ١٧٤

سلام الملائكة على أهل الجنة ، فإن ذلك على سبيل التكريم لهم ، ونفوس المؤمنين العارفين بالله الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ونعيمها ، ليست إلا ملائكة بالقوة إن فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل « تمنح إلى خلقها من الأولاد وقراباتها وتلاميذها ، وأهل دينها ومذهبها الصالحين منهم » وبذلك يكون الاتصال بين الملائكة وكرام النفوس ، وبهذا يكشف الغيب المحجب (١) .

ولكن لنعد الآن الصوفية أنفسهم يتحدثون بلغتهم ، وهم وإن اختلفت وجهات نظرهم في بعض الاتجاهات ، متفقون في تصوير الفكرة ، ولعل أظهر مدارسهم في هذا الصدد ، مدرسة التصوف السني التي أسسها الغزالي المتوفى سنة ١١١١ م ، ثم المدرسة الإشرافية التي أنشأها السهروردي المتوفى سنة ١١٩١ م ، فلنعرض موقف المدرستين كما يتمثل في زعيم كل منهما :

الكشف عند أهل التصوف السني :

بدأ التصوف الإسلامي عمليا ، يتمثل في العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا ... إلى آخر ما يقوله ابن خلدون ، ثم أدركته العناية بالأبحاث العقلية ، وتسلمات إليه الأنظار الفاسقية في المعرفة والوجود ، ولكن أهل السنة قد تنكروا لهذا النوع من التصوف الفلسفي ، وضاقوا بالنظريات الفلسفية الجامحة ، وتصدى الأشاعرة لإنكار هذا الجرح ، وانتصر لجلتهم « الغزالي » حجة الإسلام ، وإن أبقى على التصوف الذي يسير التعامل الدينية ، ويتمشى مع روح السنة ، وبهذا آثر العمل على النظر ، وغلب التعبد على التأمل ، ورجح الاهتمام

بالساوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والحرمان ونحوه^(١) ،
وجعل الايمان - لا التفلسف - طريقاً إلى الله ، ورأى أن القلب لا العقل هو الدراك
للحقيقة ، وهاجم علماء الكلام والفلاسفة معاً ، وإذا كان قد قرر قيام الحدس
والفيض والإلهام أداة لإدراك العالم الباطن ، فقد صرح مراراً بأن هذا لا يجيء
باتحاد أو حاول أو نحوه ، إذ فرق بين العلم الذي يحصله العلماء والحكماء بالتعلم
والاستدلال ، وبين العلم الذي يهجم على قلب النبي أو الولي دون نظر أو تعلم ،
ورأى أن الطريقة التي تنكشف بها الحجب عن أعين القلوب ، ليتجلى ما هو مسطور
في المروح المحفوظ ، هي التعميد وليست التأمل ، وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف
له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكاف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت ،
وأن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، ولهذا لم يحرصوا على
دراسة العلم ، واستيحاب ما صنفه المصنفون ، بل اعتبروا الطريق قائماً في تقديم المجاهدة
ومحو الصفات المذمومة وقطع الملائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله ، وقد
انكشف الأمر للأنبياء والأولياء ، وفاض النور على صدورهم ، لا بالتعلم والدراسة
وتأليف الكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من
شوائبها^(٢) فإن اكتساب العلم اللدني يكون بارتفاع حجاب الحس المرسل بين
القلب والروح ، فإذا كان القلب فارغاً من علائق الحواس طالع جواهر الملكوت^(٣) ،
والطاقة التي يطل منها المرء على عالم الملكوت ، قد تنفتح إبان النوم في رؤيا صادقة ،

(١) انظر كتابنا « الشعراى - إمام التصوف فى عصره » ص ٧ - ٨ و ١٠٧ - ١٠٨
(طبعة أولى ٩٤٥)

(٢) الغزالى : الإحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٥ والإحياء ج ٤ ص ٤٣٩

وقد تفتتح أثناء اليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة ، وتجرد من الشهوات وقبيح الأخلاق ، واعتزل الناس وعطل طرق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه ، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت ، وقال بقلبه لا بأسانه : الله الله مواظباً على هذا ، عندئذ تفتح الكلمة بجروفيها ويبقى معناها مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه كأنه ملازم له لا يفارقه ، وعندئذ يتعرض لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى بمد هذا إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة بهذه الطريق ، كما فتحتها على أنبيائه وأوليائه ، وعندئذ تلعج لوامع الحق في قلبه ، وتنفتح الطاقة ويبصر في اليقظة ما يبصره في النوم ، وينكشف له ملكوت السموات والأرضين ، وتشهد بهذا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهذا هو طريق الصوفية ، وهو درجة قد اختصرت من طريق النبوة ، وهي لا تقع بالتعليم ، بل بالذوق وحده ... وهكذا ترجع الطريق إلى تطهير محض وتصفية وخلاء ثم استعداد وانتظار (١) .

والواصلون إلى مرتبة السلم اللدني في غنى عن مشقة التحصيل وتعب التعليم ، فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً (٢) .

وبهذا يكون الفرق بين عالم الأولياء والأنبياء ، وعالم العلماء والحكماء ، أن الأولى تجيء من داخل القلب ، من الباب الذي ينفتح إلى عالم الملكوت ، أما علم الحكمة فيجىء من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ... ويمضي الغزالي في تأييد هذا الاتجاه ، مدالاً على صحة رأيه بشواهد يستقيها من الشرع (٣) .

(١) الغزالي : من نصوص له في كيمياء السعادة ص ١٦ و ١٧ والإحياء ج ٣ ص ١٦ و ١٧

(٢) الغزالي : الرسالة اللدنية ص ٤٥

(٣) الإحياء ج ٣ ص ١٨ وما بعدها .

والرأى عنده أن التعلم بغير معلم ممكن لا محالة ، فإن جوهر الإنسان في أصل
الفترة خال ساذج ، لا خبر معه من عوالم الله ، ووسيلة إدراكها هي الحواس (١) ،
والعلم اليقيني لا يدرك بهذه الأدوات ، ويستعرض الغزالي العلم اليقيني الذي ينبغي
طلبه ووسائل إدراكه ، ومدى الاطمئنان إلى قدرة وسائل الإدراك على كشف
الحقائق ، حتى إذا انتهى إلى الشك في الحواس ثم في العقل ، قال إن من الممكن أن
تطراً عليك حالة تسكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون
يقظتك يوماً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحال ، تيقنت أن جميع ما توهمت بمقلك
خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة هي ما يدعى الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون
أنهم يشاهدون في أحوالهم إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً
لا توافق المعقولات - وهكذا فمر الشك الغزالي حتى تحرر منه « لا ينظم دليل
وترتيب كلام ، بل بنور قدّفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر
المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله
الواسعة » وهذا النور ينبجس من النور الإلهي في بعض الأحيان ، ولهذا وجب
الترصد له والجد في طلبه ، فليس من المجدي أن تحاول إدراك الأوليات العقلية
والبدهيات ، بنظم كلام وترتيب أدلة ، فهي حاضرة في الذهن والحاضر إذا طلب
فقد « وعلى هذا فإن إدراكها يكون بالحدس الباطني ، أو بالنور الذي يقذفه الله في
الصدور (٢) .

وقد كان الغزالي بهذه الدعوة الجريئة ، أكبر من مهدها للاتجاه الذي عرف

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١٣٦ - ١٣٧ (الطبعة الثانية لمكتب النشر العربي

بدمشق) حيث يستعرض الحواس بحسب خلقها في الطفل محمداً وظيفة كل منها على حدة .

(٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ص ٦٥ - ٧٥

بعده عند الصوفية في عصور الاضحلال ، وهو الذى يجهر أصحابه بمناهضة التعلم ومقاومة النظر العقلى ، ويصرحون بأن الأمية تجمل صاحبها أكثر استعداداً لتلقى الإلهام ، وأن العالم المكتسب يعوق التهيؤ لاستقبال العلم اللدنى .. !

بل إننا نرى عند بعض من أعقبوه من الصوفية المتفلسفين نصوصاً تشبه النصوص التى أسلفناها عن الغزالي ، فابن عربى يصرح بأن العلم الذى لا يحصل إلا عن عمل وتقوى وساك ، هو المعرفة اليقينية الحقة ، لأنه يكون عن كشف محقق لا تدخله الشبه ، أما العلم الذى يحصل عن نظر فكري ، فإنه لا يسلم من الشبه أبداً^(١) بل لقد كان ابن عربى يأخذ على الفقهاء فى عصره ، أنهم يشتغلون بالجدال « ينوون بذلك تلقيح خواطرهم »^(٢) وما نظن أن هذه النعمة كانت قبل الغزالي واضحة سافرة على هذا النحو .

ومن هذا ترى أن الغزالي قد أقر الإلهام والحدس أداة للعلم اللدنى ، ورفض أن يجى هذا عن تعلم واكتساب ، أو باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال كما ذهب الفلاسفة أو باتحاد الناسوت باللاهوت كما ذهب بعض الصوفية .

الكشف عن أهل التصوف الأشرافى :

يعبر السهروردى عن مذهبهم فيقول « إن النفوس الناطقة من جوهر المكوت (أى عالم المجردات والمقولات والكميات ، وهو عالم الغيب أو العالم العلوى أو السماوى) وأن ما يشغلها عن عالمها ، هذه القوى البدنية ومشاغباها ، فإذا قويت النفس

(١) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٩٣

(٢) المصدر السالف ص ٥٥٩

بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ،
تتخلص أحيانا إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس ، وتتلقى منه المعارف ،
وتتصل بالنفوس الفلكية العاملة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منهم المغيبات في
نومها ويتقظها ، كراتة تنتقش بمقابلة ذى نقش ... (١) وهكذا يتصل المرء بالنفوس
الفلكية ويدرك شتى المعلومات والمعارف في عالم الغيب ، وتلك هي غاية التصوف
التي يسعى إلى تحقيقها الإشراقيون ، وهي شبيهة بغاية الفيلاسوف في السعادة التي
تتحقق عند أهل الفلسفة الإسلامية ، من الاتصال بالمقل الفعال كما أشرنا
من قبل .

صوفى الفقهاء صم الصوفية :

هذه النتيجة التي انتهى إليها الصوفية في تقرير الكشف عن عالم الغيب ،
لا يرفض التسليم بها خصوصاً منهم من الفقهاء ، ولقد صدق الأستاذ ماسينيون حين قال
إن أهل السنة لم يقولوا في الواقع بمروق المعتدلين من الصوفية ، فقد دأب أهل السنة
على الاهتداء في معاملاتهم وعباداتهم برسائل معروفة لأهل التصوف ، وكان فقهاءهم
الذين اشتدوا في الخط من شأن المتصوفة ، أمثال ابن الجوزى (+ ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م)
وابن تيمية (+ ٧٢٨ هـ - ١٣٢٧ م) وابن القيم (+ ٧٥١ هـ - ١٣٥٦ م) يقدرون
الغزالي ويعتبرونه حجة في مسائل الأخلاق ، وقد صب المتأخرون من فقهاء أهل
السنة غضبهم على مريدي ابن العربي لقولهم بالوحدة (٢) ونشر إلى موقف

(١) السهروردي ، هيا كل النور ص ٤٣ و ٤٤

(٢) ماسينيون : مادة تصوف في دائرة المعارف الإسلامية ، وإن كان ابن تيمية قد هاجم
الغزالي من جراء آرائه الفلسفية ، النبتة في « المنقذ » و « الأحياء » الذي تضمن الكثير من
الأحاديث النبوية التي لا يوثق فيها - وحمل عليه من جراء خلطه التصوف بالفلسفة وانظر مادة
ابن تيمية في دائرة المعارف الإسلامية .

ابن تيمية بالذات ، فهو حنبلي متطرف من أهل الظاهر فيما لاحظ جولان تسيهر في كتابه عن عقيدة الإسلام وشريعته ، وقد فقه الحديث حتى قيل إن الحديث الذي لا يسلم بصحته ابن تيمية لا يعتبر صحيحاً ، واشتدت حملاته على المتطرفين من الصوفية ، وأفتى بهرطقة القائلين بنظرية الاتحاد ، وكان مفسره السجن ، وكانت آراؤه أساساً للوهابية والسنوسية بعد ، وكان يحمل على ابن عربي ومن سلك مسلكه في فهم الولاية ، وإيثارها على النبوة^(١) ، فهو يشرح معنى الوحي في رسالة له ، ثم يعقب قائلاً : والوحي بالمعنى السالف للمؤمنين جميعاً ، ثم يستشهد بالآيات القرآنية على صحة ما يقول^(٢) ، وليس في هذا الموقف مثار لدهشة ، إذ كان ابن تيمية يرى أن صريح العقل لا يخالف صريح النقل بحال ، ووضع لتأييد هذا الرأي كتابه « موافقة صريح العقول لصحيح المنقول »^(٣) . ويلوح لنا - مع هذا كله - أنه كان يسلم بالإلهام الصحيح عند بعض أهل الذوق والمكاشفة ، ويستشهد على صحة تسليمه ، بالوثوق به من الأحاديث النبوية ، حتى إذا فرغ من استشهاداته عقب قائلاً (والمقصود أن هذا الجنس واقع)^(٤) ولكن معالي أستاذنا مصطفى باشا

(١) ابن تيمية : رسالة الفرقان ص ١٤٧ و ٢٠ و ٢١ وهو يقول في رسالته عن حقيقة مذهب الاتحاديين ، إن مقالة ابن عربي مع كونها كفرأ ، فإن صاحبها أقرب أصحاب الاتحاد ونحوه إلى الإسلام ، لما يوجد في كلامها من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه . انظر ص ١٢٢ من فيلسوف العرب .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٣) معالي مصطفى باشا عبد الرازق : « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » ص ١٢٠ وهو يستند إلى استشهادين رائعين ، أما الكتاب المشار إليه في صلب الكلام فطبوع على هامش منهاج السنة النبوية (مطبعة بولاق ١٣٢١ هـ)

(٤) رسالة الفرقان ص ٥١ - ٥٤

عبد الرازق ، يقول في بحثه الشائق عن ابن تيمية « وليس يرى للمعرفة طريقاً غير الوحي والعقل ، أما الكشف الصوفي فهو ينكره ويرده بالدلائل العقلية وبالذليل السمعي معاً » (١) .

وهكذا يسلم آل خصوم الصوفية من أهل السنة الحنابلة - فيما يلوح - بإمكان الكشف الصوفي الذي ييسر لأهله معرفة الغيب المحجب .

أشباه الصوفية من مدركي الغيب

إذا كان الاطلاع على عالم الغيب ، يقع بعد انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس من علائق البدن ، والانشغال عن التفكير العقلي ، فقد يتوافر هذا دون سواك هذه الطريق الوعرة ، التي يرسمها أهل التصوف لبلوغ هذه الغاية ، ومن أجل هذا كان لا بد لهم - تمشياً مع منطقهم - من التسليم باطلاع كل من يتوافر له هذه الصفات على عالم الغيب ، فقالوا - أو قال بعضهم - بقدره صنف من المجانين والمعتموهين من مريدي الصوفية والمرضى والقتلى على الكشف الغيبي ، وقد قرر هذا رجل من أنضج مفكري الإسلام عقلاً وأعمقهم تفكيراً - هو ابن خلدون - وسبقه إلى بعض ما قال رجل عرف بالاطلاع الواسع والتفكير الغلاب ، هو الغزالي الذي ينقل هذا الرأي عن الفلاسفة .

إدراك الغيب عن المجانين والمصروعين :

تكون نفوس المجانين ضميصة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم في أغلب الأحوال ،

(١) كتاب معانيه السالف ص ١٢١ (طبعة الجمعية الفلسفية ١٩٤٥)

ولضعف الروح الحيوانى فيها ، وبذلك تكون غير مستغرقة فى الحواس ولا منصرفه إلى التفكير فى نقصها^(١) أو يغلب على مزاج هؤلاء المجانين ومن يشبههم من المصروعين ، اليأس والحرارة حتى يصرفه بخلبة السواد عن موارد الحواس ، فيكون صاحبه مع فتح العينين كالمبهوت الغائب الغافل عما يرى ويسمع ، وذلك لضعف خروج الروح إلى الظاهر ، ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شىء من الغيب ، فيجرب على لسانه وهو فيما يشبه الذهول^(٢) ، ولكن ربما زاحم النفس على التعلق بالبدن روحانية أخرى تتشبه به ، وتضعف هذه عن ما نعتها فينشأ عن هذا ما نراه من تخبط ، ويختلط الحق بالباطل ، لأن اتصالهم بعالم نفسه لا يتم ، وإن فقدوا الحس بغير الاستمانة بالتصورات الأجنبية التى يحيك الخيال خيوطها^(٣) .

إدراك الغيب عند المعتولين صمد سربرى الصوفية :

وأولئك أشبه بالمجانين منهم بالعقلاء ، ومع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وقد شهد بهذا من فهم عنهم من أهل الذوق ، ولا تكليف عليهم فإيسوا مقيدين بشىء ، ومن أجل هذا أنكر بعض الفقهاء أنهم على شىء من المقامات ، لأن الولاية فى عرفهم لا تجىء بغير عبادة ، ولكن فضل الله يؤتیه من يشاء بغير عبادة أو نحوها ، ومن أجل هذا وقعت لهم المعجائب فى مجال الإخبار عن الغيب . . . !

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٣

(٢) الغزالي : معاصد الفلاسفة ص ٣١٢ و ٣١٣

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٤

والفرق بين هؤلاء البهائيل المتوهين وبين المجانين حقا ، أنهم لم يفقدوا نفوسهم
الناطقة ، ولكنهم فقدوا العقل الذى يناف بالتكليف ، ويعرف المرء به وجوه مماشه
واستقامة منزله ، ومن فقد هذا فليس بفاقد نفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته ، وأظهر
ما يميزهم من المجانين أنهم لا يكفون عن الذكر والعبادة ، وإن وقع منهم هذا على غير
وجهه الشرعى لسقوط التكليف عنهم ، ويختلفون عن البله منذ نشأتهم ، ولا يعرض
لهم الجنون فى مراحل العمر لعوارض بدنية طبيعية ، وهم يكثرون من التصرف فى
الناس بالخير والشر ، لأنهم لا يتوقفون على إذن لسقوط التكليف عنهم ، وليس
المجانين على شىء من هذا كله — فيما يرى ابن خلدون^(١) .

ومن أجل هذا يقول « لين » Lane فى معرض حديثه عن المصريين ، إن
المعتوه idiot أو الأبله fool يعتبر فى عرف العامة كائنا عقله فى السماء ، وجزؤه الكثيف
— جسمه — يعيش بين عامة الناس ، ومن ثم يعتبر حبيب الله — أى ولياً^(٢) .

إوراك النيب عند المرضى والتصرفين على الموت :

يرى فريق من أهل البحث ، أن بعض معقولات المصابين بأمراض خاصة ،
تتمثل فى خيالهم ، وتصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى
ويسمع بل يجالده ويصارع ، ولا شىء من ذلك فى مجال الحس^(٣) ، ويلاحظ ابن سينا
فى إشارات أن بعض المرورين والمرضى ، يرى صوراً لا تتصل بإحساساتهم الخارجة

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ و ٩٧

(2) E. w. Lane, Modern Egyptians p. 234.

(٣) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١١٢ لعله يقصد ما يعرف فى علم النفس بالأوهام

في كثير ولا قليل ، ورد هذا إلى الخليفة باعتبارها مصدر الصور الباطنة^(١) . وثبت فيما يقولون بتجارب المسادين من الأطباء ، أن بعض هؤلاء المرضى يخبر بالمغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق ، والحوادث في هذا الصدد تثير العجب^(٢) .

فأما القتلى فإنهم حين تفارقهم رؤوسهم وأبدانهم ، يلقون أبناء تتصل بعالم الغيب ، ويقال إن بعض الجبابرة الظالمة ، قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلامهم إبان قتلهم ، عواقب أمورهم في أنفسهم ، فأنبأهم هؤلاء بما يشير الدهشة ، وقيل إن الآدمي إذا أقام في دن مملوء بدهن السمسم أربعين يوماً ، يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى إلا عروقه رأسه ، وخرج من ذلك الدهن وجف عليه الهواء ، فإنه يجيب عن كل ما يسأل عنه من عواقب الأمور خاصة وعامة ، ورغم أن هذا من أفعال مناكير السحرة ، إلا أنه يكشف لنا عن عجائب العالم الإنساني ، ومن ذلك ما نراه عند من يحاولون بالمجاهدة أن يموتوا موتاً صنعياً ، فيعملون على قتل جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلوثت بها النفس ، ثم تغذيتها لترداد قوة ، ويقع هذا بجمع الفكر وكثرة الجوع ، والمعروف على سبيل اليقين أن الموت متى نزل بالبدن ، ذهب الحس وزال حجابُه ، واطلعت النفس على ذاتها وعالمها ، فهم لهذا يحاولون أن يحصلوا على هذا بالاكتساب ، ليقع قبل الموت ما يقع بعده ، وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب^(٣) وليس عجيباً أن يؤدي الموت إلى كشف الغيب ، فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملسكوت ، فلا يرى

(١) ابن سينا في إشاراتِه وإعانه نقلها عن أرسطو - أنظر الفقرة الثانية والخسين من الكتاب الأول في العلم بالغيب لمؤلفه شيشرون -

(٢) قارن رشيد رضا في هامش له على رسالة التوحيد ص ١١٣

(٣) ابن خلدون في المقدمة ص ٩٥

بعمينه الظاهرة ، بل يرى بالعين التي خلقت في كل قاب ، وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشبهوات^(١) ، وبين القلب واللوح المحفوظ الذي نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة ، يقوم حجاب قد ينكشف في المنام أو اليقظة ، ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب ، إنما يكون بالموت^(٢) ، فالقلب إن مات بموت صاحبه ، لم يبق ثمة خيال ولا حواس ، فيصير بغير وهم ولا خيال ، فتنتفح الطاقة التي يطل منها المرء على عالم الملكوت^(٣) .

منابع الكشف الصوفي في التراث القديم^(٤) :

اختلف الذين حاولوا تأريخ التصوف الإسلامي - مستشرقين وشرقيين - في المنابع التي صدر عنها^(٥) ، وحسبنا أن نتحدث عن المنابع التي صدر عنها التصوف في مرحلة من مراحل تاريخه ، هي التي كان فيها أداة إلى الكشف الغيبي : يستعرض معالي مصطفى باشا عبد الرازق أطوار التصوف ومراحلها فيقول : إن أولها أنه كان طريقاً من طرق العبادة يعبر عن معنى الكمال الديني بالتمسك بالشرع والزهد في الدنيا ، عند ما أخذ الناس في مخالطة الزخارف الدنيوية ، وكان يقابل علم الفقه الذي يتناول ظواهر العبادات ورسومها ، وهذا الدور لا يعيننا في هذا الفصل ، ولما نشأ البحث في العقائد والتماس الإيمان من طريق النظر أو النفوس المقدسة ، وتوجهت همم المسلمين إلى التماس المعرفة على أساليب المتكلمين ، أصبح الكمال الديني

(١) الغزالي ، الاحياء ج ٢ ص ٢٨

(٢) الغزالي ، الاحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالي ، كيمياء السعادة ص ١٥

(٤) كان في نيتنا أن نسوق أمثلة للكشف الغيبي عند الصوفية والمجانين والمصروعين ونحوهم ، نعقب عليها بتحليلها وردّها إلى عللها القريبة ، ولكن بدا لنا أن حجم الكتاب المقرر ينتظر أن يضيق عنها ، فليطلع القارئ على هذه النماذج في الطبقات الكبرى للشعراني (ج ١ ص ١٥٦ و ج ٢ ص ١٣ و ٧٦ و ١٢٠ و ١٦٠ و ١٦١) . وليحاول تحليلها ! .

(٥) استعرض زميلنا الدكتور محمد مصطفى حامى وجهات النظر المختلفة في هذه المنابع ، في كتابه الشائفة « الحياة الروحية في الإسلام » مستنداً إلى مصادر قيمة .

هو التماس الإيمان والمعرفة من طريق التصفية والكاشفة ، وأصبح التصوف عبارة عن بيان هذه الطريقة وسلوكها ، وأصبح بذلك طريقاً للمعرفة يقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين ، واعتبر علم الكاشفة ، وهو نور يظهر في القلب عند تطهيره وتذكيته من صفاته المذسومة ، وتنكشف بذلك النور أمور كثيرة ، ثم شاعت بعد ذلك أقاويل الفلاسفة والمتكلمين في الصانع وصدور الموجودات عنه ونحو ذلك (فتكلم الصوفية في هذا كله على منهجهم الذي لا يعتمد على نظر ولا نفس ولا معرفة إلا من ذاق ما ذاقوا ، وهم يرون ما تكلموا به حق اليقين الذي لا يقبل شكاً ولا ياحقه بطلان ، ولا يدركه إلا من بلغ رتبة العرفان) ، ويقول معالي الباشا إنه لا ينفكر أن التصوف في هذا الدور لم يخزل من تأثر ببعض ما وصل إلى المساءين من معارف الأمم القديمة ، ولكنه مع ذلك لا يزال يجد الصبغة الإسلامية غالبية في هذا العلم الوليد ، ولا يسلم برأى جولد تسهر في ضرورة تقدير النصيب الهندي الذي ساهم في تكوين هذه الطريقة الدينية المتولدة من الأفلاطونية الجديدة^(١) .

وهذا رأى سليم فيما يلوح ، أما المؤثرات القديمة الغربية التي يشير إليها معالي الباشا فرمما كانت - فيما ترى - الأفلاطونية الجديدة والغنوصية والرواقية والفيثاغورية ونحوها ، وقد يستلزم الحديث عن هذا كله ، الإشارة إلى تأثر اليونان والرومان بقدماء الشرقيين في هذا الصدد ، بل ينبغى أن نبدأ ببيان موقف الدين الإسلامي ، فإن التصوف إذا لم يتصل بالعناصر الدخيلة ، وبقي في نطاق الزهد الإسلامي ، لكان ينتظر أن يتطور ويتحول ، وإن كان تطوره سيكون على غير الوجه الذي نراه الآن بعد اتصاله بالعناصر الدخيلة فيما يقول نيكلسون^(٢) .

(١) معالي الأستاذ مصطفي باشا عبد الرازق في تعليقه على مادة تصوف بالنسخة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .

(2) Nickolson : Mystics of Islam p. 20 and A. Litt. Hist of the Arabs p. 392.

موقف الميراث الإسلامي من هذه الآراء :

ذهب الصوفية وأشياعهم إلى أن هذه الأفكار قد وردت تصرّحاً أو تلميحاً في آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ، ومن أجل هذا - فيما يلوح - قال ابن خلدون : إن متأخري الصوفية الذين تكلموا في الكشف وما وراء الحس ، وذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة ، يتجهون إلى الإسلام ويستقون منه مبادئهم ، وقد خالطوا الإسماعيلية المتأخرين من الرافدة الذين يدينون بالحلول وتأليه الأئمة ، وظهر في كلام الصوفية القطب ومعناه رأس العارفين ، وزعموا ألا يبلغ أحد مرتبته في المعرفة حتى يقبضه الله ويورث مقامه لآخر من أهل العرفان^(١) . ويقول الغزالي إن الله يقول وعلمناه من لدنا علماً ، مع أن الله مصدر كل علم ، إلا أن بعض العلوم يجيء اكتساباً بالتمام ، وليست هذه علوماً دينية ، لأن العلم اللدني هو الذي يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من الخارج ، إنما يجيء بالتقوى والعمل الصالح ، قال تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً - قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ويخرج من الشبهات ، ولهذا كان الرسول يكثر في دعائه من سؤال النور ، فيقول اللهم أعطني نورا وزدني نورا واجعل في قلبي نورا ... وصرح القرآن بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم ، وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » من الإشكالات والشبه ، « ويرزقه من حيث لا يحتسب » أي يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة ، وقال الرسول من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووقفه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٩٤

آتاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ، وهكذا يروى أهل الباطن^(١) الكثير من الآيات والأحاديث التي يثبتون بها أن الله مصدر وحى الأولياء وأهل الكشف ، وأن العمل الصالح وتقوى الله ، هي التي تهيب النفس الإنسانية إلى الوحي والإلهام ، وأن مصادر هذا كله موجودة في القرآن والحديث ، وإذا جاز أن يقال إن الغزالي ليس محدثاً ولا يحسن رواية الحديث ، جاز أن يقال إن الحنابلة من أهل الظاهر يسهلون بالكشف الصحيح ، ويؤيدونه بآيات الله وأحاديث رسوله ، وقد عرفنا هذا من بعض ما أسلفناه ، ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن تيمية عن صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي أنه قال : « لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ... الخ ويروى عن الترمذي أن النبي قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ويورد من آيات القرآن ما يشهد بصحة هذا الرأي^(٢) » وبهذا يصبح الإسلام عند الصوفية وأهل السنة معاً ، المصدر الذي استقى منه التصوف القول بكشف المؤمن للغيب ، عن إلهام إلهي لا دخل فيه لتعلم أو تجربة ، وقد اعتمد أهل التصوف على هذا ، وبالغوا في تصوير التقوى والعمل الصالح حتى ألغوا الدنيا وأبقوا على الحياة الأخرى وحدها ، ولهذا ما يبرره في الإسلام نفسه ، فالدين وإن كان قد جمع بين الدنيا والآخرة ، إلا أنه آثر الأخرى في الكثير من آياته .

الكشف الصوفي في تراث اليونان والرومان : موقف الرواقية :

يعبر « كونتوس » الرواق عن الآراء السالفة فيقول ، إن في النفس الإنسانية

(١) الغزالي ، في الاخياء ج ٣ ص ٢٠ و ٢٢ وقد سجلنا هذه الأحاديث مؤرخين

لا مؤيدين .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ص ١٩٩

ملكته ملازمة لها ، تمكنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملكة ، وجعلها بإرادته جزءا مكونا لها ، فإذا نمت هذه الملكة على غير قياس ، سميت جنة أو إلهاما إلهيا^(١) ، ويكرر هذا المعنى قائلا ، إن الطبيعة البشرية تبين عن مقدرتها على التنبؤ بالغيب ، عند ما تتخلص من علائق الجسد ، وهذا ما يقع في الرؤيا ، أو في الأوقات التي يمتري فيها النفس جذباً أو إلهام إلهي ، وليس في ذلك من بدع ، فإن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضها ويدرك كل منها ما يفكر فيه غيره ، دون الاستمالة بالحواس من عين أو أذن أو لسان أو نحوه ، والناس لا يساورهم الشك في أن الآلهة على علم بكل تصرفاتهم ، ولو كانت في خفاء ، فكذلك الحال في نفوس البشر ، عند ما تدرك بفطرتها عالم الغيب حين تتجرد من علائق الجسد وتتخلص من شهواته ، دون أن تستعين بالنظر أو السمع أو نحوه من أدوات المعرفة الحسية^(٢) .

وبهذا يقرر الرواقية ما يقوله إخوان الصفا وغيرهم من مفكري الإسلام الذين قالوا بوجود قوة تكمن في باطن النفس البشرية ، تمكنها من كشف الغيب عند ما تتجرد النفس من علائق الجسم وشهواته ، وهذا نفسه ما يؤكد « كوتتوس » حينما يقول إن التكهّن الطبيعي يعزى إلى الطبيعة الإلهية ، وأن النفس أثناء اليقظة تستبد بها مطالب الحياة اليومية ، فيمنعها هذا من الاتصال بالنفوس الإلهية ، وأن من المحقق أن النفس لا تستطيع هذا النوع من التكهّن ، إلا إذا كانت من الحرية بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقاً ، كما يقع في حالات الجذب أو الرؤيا الصادقة ، ولا غرابة في هذا ما دنا نسلم بوجود الآلهة وهيمنتهم على الكون ، بما لهم من سبق النظر بالمستقبل ، وتديرهم لشئون الناس جماعات وأفراداً^(٣) .

(١) شيشرون : العلم بالغيب في الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول .

(٢) المصدر السالف : في الفقرة السابعة والخمسين من الكتاب الأول .

(٣) المصدر نفسه في الفقرات من ٤٩ - ٥١ .

الغنوصية والأفلاطونية الجديدة وأثرها في الكشف الصوفي :

وقد امتزجت الرواقية والفيثاغورية والأفلاطونية بعناصر فارسية وسريانية ونحوها ، وتألف من هذا كله مزاج تشبع بروح صوفية تجت أول الأمر في مذهب الغنوصية الذي عاش في القرون الأربعة السابقة للميلاد ، وقصد أصحابه إلى إدراك كنه الأسرار الربانية عن طريق الكشف الصوفي ، لا بالبرهان والاستدلال العقلي ، ثم شاعت هذه النزعات في التصوف الإسلامي الذي حاربه أهل السنة أول الأمر ، ثم سلموا به وأقبلوا عليه بعد أن روج له الغزالي ، وتأثر التصوف الإسلامي بالروح الغنوصية ، ولوحظ أن الأرواح القدسية التي كانت في الهيلينية ، قد ظهر ما يقابلها في الإسلام بوجود الأولياء إلى حد أن أضحى محمد ، وهو نموذجهم الأعلى ، هو العقل الموجود منذ الأزل والرحيم المخلص القدير ، وهكذا تأثر التصوف وفرقه في هذه النزعات الهيلينية إلى جانب تأثره بالأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثه فيما يقول الأستاذ بيكر في محاضراته عن تراث الأوائل في الشرق والغرب ، وكما يظهر من مقال « جولدتسيهر » عن العناصر الأفلاطونية المحدثه والغنوصية في الحديث النبوي^(١) .

أما فكرة الجذب التي شاعت في كتب التصوف الإسلامي ، فقد كانت معروفة في الأفلاطونية الجديدة ، وقد فطن « سانت هيلير » إلى ردها إلى أرسطو ، لا إلى الأفلاطونية - إذ قرر بأن السعادة تكون في شواغل العقل (التأمل) ومشاهدة الذكاء ، وذلك أن أرسطو يقول إن الغرض الأسمى للحياة ، هو فاعلية النفس بالمطابقة للفضيلة ، وهي فضيلة تفكر ، وقال سانت هيلير إن الاسكندرانيين قد ذهبوا

(١) قارن هذا في ترجمة زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوي في « تراث اليونان » .

في هذا المذهب الأرسطاطاليسي إلى نهايته ، فأداهم هذا إلى القول بادعاء الولاية وضلالات الغيبوبة^(١) .

وفي الحق لقد شاع عند الرومان التنبؤ بالغيب أثناء الجذب ، وكانت له آلهة تنولاه ، وكان موضع ثقة عند الناس ، وأشهر هذه الآلهة « بللونا » Bellone التي أشار إلى بعض نبوءاتها المؤرخون من أمثال تبولوس Tibulius وجوفنال Juvenal ولو كان Lucan ، وكذلك يقال في الإلهة « ما » Ma والإلهة سيبييل Cybèle ولكن المؤرخين قد أشاروا إلى أن اليونان قد استعاروا عن الشرق القديم الكثير من هذه المعتقدات .

في التراث الشرقي العبري :

يقال إن الإلهة « ما » قد نقلها جنود الرومان من آسيا الصغرى ، حين كانوا يتقاتلون في أرضها تحت إمرة « سلا » ويشهد بهذا بلوتارك في (حياة سلا) وقد كانت آسيا الصغرى في أواخر عهد الجمهورية مهداً للحروب ، ويقول بلوتارك إن « سلا » كان قد رأى هذه الإلهة في حلم وقع له - أما الإلهة « سيبييل » أم الآلهة ، فهي أسيوية نقلت بقرار من مجلس الأعيان أثناء حروب هانيبال .. !! وقد قرر المجلس نقلها بعد الاطلاع على ما ورد في هذه الكتب بشأنها .

ويضاف إلى هذا أن كهنة هؤلاء الآلهة كانوا يسمون Fanatici أي المجانين أو المجاذيب ، وكانوا يقطعون أنفسهم حتى يسيل الدم من أبدانهم ، ويزعمون أنهم لا يشعرون ولا يدرون ما يفعلون .

(١) سانت هيلير في مقدمته لترجمة الأخلاق لأرسطو ترجمة الأستاذ لطفى السيد باشا.

أهل الكشف من اليونانيين والمرضى ومن السحرة :

أشرنا إلى موقف بعض مفكرى الإسلام من هؤلاء في قدرتهم على كشف الغيب ، ولم نعثرفى القرآن والحديث على ما يؤيد وجهات نظرهم ، ولكن لهذا الموقف شبيها فى التراث القديم :

فالرواقية يسمون بقدرة النفس على التنبؤ إبان النوم ، لأنها تكون حية وقوية ، وقالوا إنها تكون أوفر حياة وأعظم قوة عند ما يدركها الموت ، إذ تتجرد من علائق البدن فى هذه الحالة كل التجرد ، وبهذا تعظم قدرتها على التنبؤ بدنوها من الموت ، والذين يعترهم مرض شديد مهلك ، يرون الموت وهو يوشك أن ينقض عليهم فيما يقول كونتوس^(١) ، وقد ذهب أرسطو من قبل إلى القول بأن المصابين بالسوداء ، تقوم فى باطن نفوسهم قوة تمكنهم من التكهن^(٢) وقد دال « بوسيدونيوس » الرواقى على قدرة المشرفين على الموت على التنبؤ ، مستشهداً بقصة رجل من أهل رودس ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئاً بموت كل منهم على الترتيب^(٣) وأيد « كونتوس » هذا الرأى بقصة رجل تنبأ وهو على كومة الخشب التى سيجرق عليها جثمانه بمصرع الإسكندر العاجل ، وتحققت نبوءته بعد أيام قلائل^(٤) ، وفى الحق إن الفكرة أعرق فى القدم من الرواقية ، فإن

(١) شيشرون ، فى الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول .

(٢) أرسطو ProbXXX ص ٧١ ؛ ويلاحظ أن كونتوس لم يسلم برأيه ، ورد هذا إلى النفس السليمة لاجسم المريض — قارن الفقرة ٣٨ من الكتاب الأول فى شيشرون ، وهذا يخالف رأيه فى الفقرة الثلاثين — السالفة الذكر —

(٣) شيشرون فى الفقرة ٢٩ من الكتاب الأول . وقارن الفقرة الثالثة والعشرين فى الكتاب

نفسه .

(٤) المصدر نفسه فى الفقرة الثانية والعشرين .

« ديودورس » الصقلي يقول إن فيثاغورس وغيره من قدماء الطبيعيين ، قالوا - اعتقاداً منهم بخلود النفس - إن النفس تدرك المستقبل في اللحظة التي تنفصل فيها عن الجسد ، ويكرر (سكستوس إمبريكوس) نصاً لأرسطو مقررّاً أنه يعيد ما يرويه هومير في الإلياذة في هذا الصدد ، وقد روى « هومير » أن « هكتور » كان يقتل « باتروكلوس » فتنبأ الأخير قبل أن تفارق روحه جسده ، بأن قاتله هكتور سيقتله « أشيل »^(١) ، ولما تحقق هذا ، تنبأ هكتور قبل أن يلفظ نفسه ، بأن أشيل سيقتل على يد باريس بمونة أبولو^(٢) ، وقد أيد القول بتنبؤ المشرفين على الموت ، بعض الممتازين من الأطباء ، فإن « أريتية » Aretée - على سبيل المثال - يقول في أسباب الأمراض الحادة وأعراضها ، إن الملائكات العقلية تحتفظ بنشاطها أثناء الإصابة بالحى الحادة ، بل إن المرضى يتنبأون خلالها بموت أنفسهم ، ويعلنون المستقبل القريب لمن يحيطون بهم^(٣) .

حسبنا هذا عن تنبؤ المرضى والمشرفين على الموت ، أما المجانين والمصروعون والمعتوهون من مريدى الصوفية ، فقد ذكرنا عن حالات الجذب والمس في المذهب الإسكندري وعند الرواقية ما يكفي في هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير إلى أن الرواقية مثلاً ، قد آمنوا بأن المعتوهين من أمثال « كساندرا » يكشفون الغيب الذى لا يقوى على كشفه الحكاء من أمثال « بريام » ولا يرون غضاضة في جهل السر في هذا ، قانعين بما يرون وما تشهد به تجاربهم^(٤) ، وإن كان أتباع الأكاديمية الجديدة من

(١) هومير : الإلياذة في الكتاب السادس عشر سطر ٨٥٣ وما بعده .

(٢) المصدر السابق في الكتاب الثاني والعشرين ص ٣١٠ من طبعة Flammarian

(٣) شارل أبون في تعليقاته على شيشرون (طبعة جارنييه الفرنسية)

(٤) شيشرون في النقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول

أمثال شيشرون ، لا يسمون بهذا الرأي الذي يخضع على من فقد العقل البشرى عقلاً إلهياً ، ويحاولون أن يثبتوا بأن « سيبييل » كانت تمتاز بالعقل المركز ، لا المخ المحتاج ولا الذهن المخبول^(١) ، وحسبنا أن نشير إلى أن رأى الرواقية السالف ، هو الذى تردد صداه عند ابن خلدون وغيره من مفكرى الإسلام - فيما يلوح - وأن هذا الرأي نفسه ، هو الذى عرفه مؤلفو المسيحية فى نظريتهم التى قرروا فيها سمو الجاهل صاحب القلب البسيط الصافى على العالم العاقل ، وعلو الطفل على الرجل الناضج ، وتفوق فاقدى الوعى على من يمتد أنه أوتى الحكمة^(٢) ، وأليس هذا نفسه هو الرأى الذى ذهب إليه بعض صوفية الإسلام ، حين قالوا بأن التعلم والتجربة ونحوهما ، يعوق الكشف الصوفى ويمنع العلم اللدنى ، على نحو ما أبنا من قبل ..؟

إن عدوى الثقافات وتزاوج الآراء لا سبيل إلى إنكاره ، ولكن التشابه فى الأفكار بين الشعوب ، قد يكون مرده إلى صدور هذه الأفكار جميعها عن مصدر آخر يسبقها ، وكثيراً ما يكون مرجعه إلى طبيعة العقل البشرى ، الذى يستجيب للمؤثرات المتشابهة بأفكار واحدة ...

(١) المصدر السالف فى الفقرة ٤٥ من الكتاب الثانى .

(٢) شارل أبون فى تعليقاته المشار إليها سابقاً .

الرؤيا الصادقة^(١)

اتفق جمهور مفكري الإسلام ، على القول بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، في يقظة أو منام أو فيهما مما ، فإن وقع هذا إبان اليقظة كان مظهراً للنبوة أو الولاية أو نحوها مما عرضنا لبيانه من قبل ، وإن وقع أثناء النوم كان رؤيا صادقة ، فإن لم تكن بوحي من الله لكشف غيب كانت أضغاث أحلام ، أدت إليها وسوسة نفس أو غلبة مزاج أو وحي شيطان ، أو نحو هذا مما اعتبروه أضغاثاً لا تقبل تأويلاً ولا تستحق اهتماماً . . ! وسنهمل أمر هذه الأضغاث لأنها لا تدخل في نطاق هذا الكتاب ، وإن كان مفكرو الإسلام قد أجادوا في تصويرها وتعليقها معاً .

عقيدة الرؤيا بالنبوة والولاية :

وقد ذهبوا إلى أن الرؤيا تنبع من نفس المعين الذي تستقي منه النبوة والولاية ،

(١) الجزء الأول في هذا الفصل مقتبس عن بحث لنا جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة ، وكان دراسة مقارنة في موضوع الأحلام . وقد اضطرنا ضيق المقام الآن إلى الاكتفاء باقتباس فقرات مقتضبة موجزة تشير إلى بعض المذاهب الإسلامية في هذا الصدد ، وإجمال منابع هذه المذاهب أو ما يقابلها في التراث اليوناني والشرقي القديم ، كما اضطرنا منهج بحثنا إلى أن نغفل هنا ذكر مذاهب المحدثين من علماء النفس ، وهذا كله مفصل في بحثنا الأصلي عن الأحلام ، وقد ظهر هذا الشهر (سبتمبر ١٩٤٥)

وإن كان حظها منه أقل كماً وكيفاً ، فلنعرض رأى ابن خلدون كنموذج لهذا الاتجاه :

يرى ابن خلدون أن للعقل نطاقاً يحسن التفكير في مجاله ، فهو يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ويعتمد على التفكير النظرى . وهذه هى مدارك العلماء ، فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ضل سبيلاً ، ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من الإدراك يقوم فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء ويتهياً للأولياء ، ومع الناس نموذج منه ، يتبدى فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام ، واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير ، لأن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملائكية ، لتصير ملكاً بالفعل فى لحظة من اللحظات ، وعندئذ تتجه إلى الملائكة الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً ، وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون بطبيعتهم عن بلوغ الإدراك الروحانى ، لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية ، مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها ، فإذا ترقى النفس تجاوزت هذا المجال ، واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الحس ، فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة حتى تتجاوز الأوليات التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول ، إلى فضاء المشاهدات الباطنية ، وتلك هى مدارك الأولياء ، أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم .

وقد ترقى النفس المفطورة على الانسلاخ من البشرية جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، لتصير فى لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل ، فتشهد أهل الملائكة الأعلى فى أفقهم ، وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى فى تلك اللحظة ،

وتلك هي نفوس الأنبياء في حال الوحي التي فطروا عليها ، ولم يظفروا بها صناعة ولا اكتساباً^(١) .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية ، وهي أقل في الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن أو غيره ، وهذا الاستعداد السالف يقوم في النفس ما دامت في البدن ، وهو على صنفين : صنف خاص يهيم للأولياء ، وآخر عام في البشر جميعا وهو الرؤيا الصادقة ، أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء ، فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضنة ، وهي أعلى الروحانيات^(٢) .

ومثل هذا نراه عند غير ابن خلدون ، فالغزالي يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة^(٣) وبينهما وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم ، يقوم فيها إلهام الأولياء ، الذى يعتبر ضعيفا بالإضافة إلى الوحي النبوى . قويا بالقياس إلى وحي الرؤيا^(٤) .

مزايا المفكرين في تصور الرؤيا وتعليلها :

تتلخص وجهات النظر الإسلامية في هذا الصدد في اتجاهين ، أحدهما شرعي صوفي ، وثانيهما فلسفي ميتافيزيقي ، فلنعرض الاتجاهين في إيجاز :

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٣ - ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٨٩

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٤) الغزالي : الرسالة الدنية ص ٤٣

الإنشائية الصوفية :

يرى الإشراقيون من الصوفية أن النفس من عالم المجردات والمعقولات ، فهي تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التي تكون من جنسها ، إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن ، فإذا قويت الفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية ، بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تنخلص أحياناً إلى عالم القدس وتتصل بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتتاق عنها المنهيات في نومها ، كما يقع لها هذا في يقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش^(١) ، وهكذا إذا تطهرنا من شواغل البدن ، وتأملنا كبرياء الحق والنور الفاضل من لدنه ، وجدنا في أنفسنا بروقا ذات بريق ، وشروقا ذات تشرىق ، وشاهدنا أنواراً ، وقضينا أوطاراً^(٢) ، وبهذا يتمكن الإنسان من الاتحاد بروح القدس المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال ، وهو أبونا ورب طائمتنا نوعنا ، ومفيض نفوسنا ومكملها بالكمالات العالمية^(٣) .

وذهب القائلون بوحدة الوجود من الصوفية إلى أن وصول العبد إلى خالقه غير ميسور مع وجود الاثنينية ، فلا بد من إفنائها أولاً ، عندئذ لا يهبط الوحي من كائن أعلى مستقل عن الإنسان ، وإنما ينبع من نفسه ، فالوجود حقيقة واحدة ، وما نراه من تعدد وكثرة ، مرجعه إلى آثار الحواس والعقل الذي يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء ، وقد ظهر الوجود الحق في صورة الكبش في منام إبراهيم الخليل ، كما ظهر في صورة إسحاق ، « وما ناب إلا عن نفسه ، وما فدى منها إلا

(١) السهروردي : هياكل النور ص ٤٣ - ٤٤

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨

بنفسه الطاهرة في الصورة الكبشية» وعلى هذا فوحى الرؤيا لا يهبط من خارج ، وإنما يصدر بهذا المعنى . من باطن النفس (١) .

ويرى الصوفية إجمالاً أن اليقظة التي تتوافر لنا بالحس هي النوم ، وأن الحلم الذي يتهيأ لنا بالفعل هو اليقظة لا محالة ، ولغاية الحس علينا ظننا الأمر على خلاف وجهه الصحيح ، فإن غلبنا العقل على الحس ، ظهر وجه الحق في ذلك (٢) فإن المرء إذا ارتقى في حال المعرفة ، أدرك أنه نائم في حال اليقظة المبهودة ، وأن الأمر الذي هو فيه ، إنما هو رؤيا إيماناً وكشفاً ، وقد ذكر أموراً واقعة في ظاهر الحس وقال : فاعتبروا ، وقال إن في ذلك لعبرة - أي جوزوا أو اعتبروا مما ظهر لكم من ذلك ، إلى علم ما يبطن فيه ، وفي الحديث النبوي : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، ولكن لا يشعرون ، وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم (٣) . ولكن الناس يحسبون وهما أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئاً من عالم الغيب ، وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة ، مما يدرك عن طريق الحواس (٤) . واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى ، لانكشفت فيها صور الأولى ، إلا إذا قام بينهما حجاب ، وليست المرآة الثانية إلا القلب ، والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا في اليقظة ، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويذول ، وبذلك تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ ،

(١) ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٣٦ - ١٣٧ وكتاب الدكتور عفيق عنه وتعليقه على مقال ابن عربي في النسخة العربية في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) أبو حيان التوحيدى : المقابسات ص ١٧٩ - ١٨٠

(٣) ابن عربي : الفتوحات ج ٢ ص ٤٩٩ والتهانوى في كشف الاصطلاحات ج ١

ص ٥١

(٤) الغزالي : كيمياء السعادة ص ١٤

وتتكشف للنفس آفاق العالم المجهول^(١) ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم حالاتها ، زال العجب من وقوع العلم بالغييب إبانها ، ولكن الرؤيا لا تقع لكل نائم ، ولا تجيء في كل نوم ، إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة ، فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضنط الأفكار الفاسدة ، وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء^(٢) ، وهو لا يتحقق إلا بتجرد النفس من شهوات الجسم ، التي تُكوّن على عين القلب غشاوة تمنعها من الإبصار ، وهذه الغشاوة منقشعة عن عيون الأنبياء ، ولكن الجلاء البصرى الذى تهبأ لهم ، لا مطمع فيه لإنسان ، وللبشر نوع من الشهادة الضميمة يتوافر أثناء النوم ، لأن النوم يمنع الحواس عن العمل^(٣) ، وهى تجردت النفس عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، أضحت روحانية ، وارتفع حجاب الحس ، ويقع لها هذا بسبب النوم أحيانا ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية ، وتعود بها إلى مداركها^(٤) ، وإذا كان الموت أذا النوم ، زال العجب من انكشاف الحجاب إبانها ، ذلك أن الموت يحول صاحبه من عالم الملك والشهادة ، إلى عالم النيب والملكوت ، وبهذا يرى بالعين التى خالقها الله فى كل قلب ، ولا يعوقها عن النظر إلا غشاء الشهوات^(٥) ، ومن أجل هذا حاول بعض الناس أن يموتوا موتا صناعياً ، بقتل جميع القوى البدنية ، وتغذيتها بالذكر والجوع ونحوه^(٦) ، وفى النوم يذهب الحس ويزول حجابها ، على نحو

(١) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٢٩ ، وكيمياء السعادة ص ١٥

(٢) ابن حزم : ج ٥ ص ١٩

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٢٩ ، ج ٣ ص ١٦ ، وكيمياء السعادة ص ١٥ وما بعدها .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ - ٩٠

(٥) الغزالي : الأحياء ج ٤ ص ٢٨

(٦) ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٥

أضعف مما يكون في الموت ، ولهذا تقع الرؤيا الصادقة إبانه ، ويكون الكشف فيها أقل في العادة منه عند الموت - وهكذا تتمكن النفس من الاتصال بالجواهر الروحانية الشريفة في حال النوم ، الذي تنصرف فيه النفس عن شغل الحواس^(١) .

وأما الملائكة التي تتأقق عنها نفوس المؤمنين هذا العلم أثناء النوم ، فهي نفوس الموتى من أهل التقوى ، فإن هؤلاء إذا التزموا الخلق القويم ، وتفقهوا في الدين حتى يخرجوا من ظلمات الجهالة ، والتزموا كرم الأخلاق منذ صباهم ، وفكروا في الدنيا وأحوالها ، حتى انتبهوا من نوم الغفلة والجهالة ، كانت نفوسهم ملائكة بالقوة ، متى فارقتهم أضحجت ملائكة بالفعل ، واستمات بذاتها ، واستغنت عن التعاق بالأجسام ، ونجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتقت إلى عالم الأفلاك ، وعندئذ تأبى الاتصال بغير بنات جنسها من نفوس المؤمنين - الملائكة بالقوة - وربما تزلت الملائكة إلى نفوس المؤمنين في منامها ، ووعظتها وذكرتها بالعماد ، أو وصفت لها ما صارت إليه ، وبشرتها فاستبشرت^(٢) . وليس من الممكن أن تكون النفوس ملائكة بالقوة ، مهيأة لقبول الوحي والإلهام ، مستعدة للارتفاع إلى رتبة الملائكة والتخلص من عالم الكون والفساد ، والاتصال بعالم البقاء والدوام ، إلا بصفاء الجوهر وحميد الأخلاق ونحو ذلك^(٣) وهكذا يكون مرد العلم في الرؤيا إلى الملائكة التي تمد به نفوس المؤمنين أثناء النوم ، وهذا التعامل يساير اعتبارها جزءاً من النبوة ، يتهيأ لأهل الإيمان وصفوة المؤمنين .

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٤ - ١٦٥ وقد ذكروا من آيات القرآن ما يؤيد ما يقولون .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٤ وغيرهما

الرجاء الفلسفي في تصورهما وتعليلها :

ذهب فلاسفة الإسلام إلى أن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، ورفض أهل الكلام التسليم بها واعتبروها من مخترعات الفلاسفة ، حسبنا منها الحس المشترك ، وهو القوة التي ترسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة^(١) ، ويرى الفلاسفة أن هذا الحس المشترك قد يأخذ المدرك في النوم من صور في العقل الفعال ، وقد يلبسه صوراً تحتاج إلى التعبير أو يبديه سافراً فيقع كما ظهر^(٢) ، بل إن الحس المشترك لا يتلقاه في عرفهم عن العقل الفعال رأساً ، بل يأخذه عن النفس الناطقة - العقل المستفاد - التي تأخذه بدورها عن العقل الفعال ، آخر العقول الفارقة ، وفيه ترسم صور الكائنات جميعها^(٣) ، فهو في هذا يشبه الجواهر الروحانية الشريفة عند الغزالي ، واللوح المحفوظ عند أهل الشرع ، والروح المقدسة عند السهروردي ، أما طريق الاتصال بالعقل الفعال ، فيكون بالتأمل العقلي أو بالخيالة القوية .

ولسنا الآن بصدد الإسهاب في بيان آراء الفلاسفة ، وضيق المجال يبرر هذا الإيجاز ، فحسبنا أن نشير إلى الكندي - أول فيلسوف إسلامي - وهو يرجع الرؤيا إلى النفس ، ويردها إلى القوة الخيالة ، ويريد بها الأداة التي تحصل صور المرئيات من

(١) التهانوي : كشف اصطلاحات ج ١ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ وابن مسكويه في القوز الأصغر ص ٩٧ وما بعدها وقارن ابن خلدون ص ٩٠ وابن رشد ص ٧٨ من الحاس والحسوس والغزالي في مقاصد الفلاسفة ص ٣١٣ - ٣١٤

(٢) الأئيمي جواهر الكلام ص ١٧٣

(٣) التهانوي في الكشف ج ١ ص ٦٠١

غير مادة - أى مع غيبة موضوعاتها عن حواسنا - والرؤيا تقع للمرء متى أغفلت استعمال الحواس ، ومتى كانت النفس نقية متجردة عما يفسد قواها ، استطاعت أن تبين عن الأشياء قبل وقوعها^(١) . ولكن الكندي لم ينشئ مدرسة تروج بمسده لتعاليمه .

وإذا جاز أن يقال إن الكندي أول من وضع الأساس في تحليل الأحلام الباطلة في فلسفة الإسلام ، كان من الحق أن يقال إن الفارابي - أكبر فلاسفة الإسلام بمد ابن سينا - هو أول من وضع نظرية الأحلام الفلسفية في الإسلام ، فقد عرض لتحميل الرؤيا الصادقة ؛ ليثبت النبوة عن طريقها ، ولينتهي إلى أن النبي والحكيم صالحان لرياسة المدينة الفاضلة ...

وتحميل الفارابي للرؤيا ، تسلم إليه نظريته في الاتصال بالعقل الفعال^(٢) ، وحسبنا أن نعرف من هذه النظرية أن في كل سماء من سماوات العالم العلوى عقلا مفارقا ، يشرف على نظامها ويدير حركتها ، وهذه العقول المفارقة تترتب في تدرج حتى تنتهي بالعقل العاشر أو العقل الفعال^(٣) ، وهو الذي يشرف على الإنسانية ، ويكون صلة بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وفاصلا روحياً بين العالم الإلهي والإنساني ، وهو مصدر الشرائع ومبعث الإلهامات الإلهية ، وإن كان مرد الإلهام إلى الله ، ولكن العقل العاشر واسطة بين الله والإنسان ، فهو يشبه الملك الموكل أنه رجال الدين ، ومن الممكن للإنسان أن يتصل بهذا العقل ، ويأخذ عنه علم ما لم يعلم بالتأمل العقلي

(١) رسالة الكندي في لغتها العربية فقدت - فيما نعلم ، وتحتفظ اللغة اللاتينية بنسخة منها ، وقد نقلها الأستاذ محمد متولى بالاستعانة بالأستاذ يوسف كرم ولم تنشر الرسالة بعد
(٢) قارن في هذا بحثنا فيما للدكتور إبراهيم مدكور في مجلة الرسالة بعدد ١٥٧ و ١٧٧
(٣) قارن الفارابي في مقالته في معاني العقل (نشر الأب بويج) .

الذي يرقى بعقله إلى درجة العقل المستنار ، وقد يظفر بهذا صاحب الخيالة القوية^(١) ،
ومثل هذا الاتصال يقع في النوم ، فيكون رؤيا صادقة ، أو في اليقظة فيكون نبوة ،
وإن كان الأنبياء أقوى خيالة من النيام ، ومن أجل هذا استطاعوا الاتصال بالعقل
الفعال أثناء اليقظة^(٢) .

وقد ترددت آراء الفارابي عند غيره من فلاسفة الإسلام ، وأخصهم ابن سينا
أشهرهم جميعا ، إذ اتخذ الأحلام أداة لإثبات النبوة ، وذهب إلى القول بأن الأحداث
منقوشة في لوح محفوظ في العالم العلوي ، وفي وسع بعض الناس الاتصال به ، عن
طريق مخيلتهم القوية ، فيقع لهم هذا أثناء نومهم ، فإن أفرطت مخيلتهم في القوة
ظفروا بالاتصال أيقاظا وأولئك هم الأنبياء^(٣) ، وذلك لأن الخيالة مصدر الصور
الباطنية ، ولكن شواغل حسية أو باطنية تصرفها عن أداء وظيفتها^(٤) وهذه تقل
عند النوم ، وتنقطع في حال النبوة ، وهكذا سار ابن سينا في نفس الاتجاه الذي رسمه
أستاذه من قبل .

أما ابن رشد فإنه يقرر أن الرؤيا لا تمرض لقوة الحس أو النطق في النفس ،
ولكنها ترجع إلى الخيالة - كالأحلام الباطلة أحيانا - وهي تتصل بالعقل الفعال
البريء ، ولا يرد كشفها الغيب المحجب إلى مقدمات أو فكر أو روية ، وإلا كان
شأنه شأن المعرفة التصديقية التي تحصل لنا عن مقدمات ، والذي يعطى المعرفة

(١) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٤٧

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ - ٥٢ .

(٣) ابن سينا : إثبات النبوات (الرسالة السادسة في رسائل الحكمة وهي ص ٨٢

والإشارات ص ٢٠٩ - ٢١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٢ - ٢١٤ .

الغميية في الرؤيا هو نفس العقل الذي يعطى المبادئ الكلية في الأمور النظرية ، وإن كانت هذه تعطى المبادئ الكلية الفاعلة للمعرفة المجهولة ، أما في حالة النوم فتعطى المعرفة المجهولة بلا وساطة ، وماهية النبوة داخلة في هذا النوع من الإعطاء ، ومن أجل هذا نسب هذا إلى إله ، هو عقل برىء عن المادة ، والمعروف في العلوم الإلهية أن هذه العقول المفارقة إنما تعطى شبيهه ما في جوهرها^(١) .

وعلة اختصاص النوم بهذا الإدراك الشريف ، أن النفس واحدة بالموضوع كثيرة بالقوى ، ولهذا فإنها حين تستعمل بعض قواها الباطنة ، يضعف بضعف الآخر ، وفعل القوة الخيالية في حال النوم يكون أكمل لا محالة ، إذ تعطل أثناء النوم الحواس الظاهرة وآلاتها ، وتميل النفس بذلك نحو الحس الباطن^(٢) .

حسبنا هذا في الإبانة عن موقف الفلاسفة والصوفية ورجال الشرع من تفسير الرؤيا الصادقة وتعليلها ، ولنحاول أن نتبين مدى الصواب في اعتبارها وحيا إلهيا ، يكشف غيبا محجبا :

مناقشة الرواء بأنها وهي الرهي :

لكي نناقش وجهات النظر الإسلامية - شرعية وصوفية وفلسفية - في اعتبار الرؤيا وحياً لكشف غيب محجب ، ينبغي أن نعرض لموقف القرآن الكريم منها : قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » وهذه الآية تجمع أصناف الوحي الإلهي الثلاثة ، ويراد

(١) ابن رشد : المقالة الثانية من الحاس والمحسوس ص ٨٢ - ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٧ - ٨٨ .

بالوحي فيها إلقاء المعنى في القلب ، وليس فيها ما يشير إلى أن هذا الالتقاء أو النفث في الروح يقع في يقظة أو منام ، ولكن بعضهم قد فسر الوحي بالرؤيا ، وشبهه بما وقع لإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده في المنام ، ولم يقصر وقوع هذا الوحي على الأنبياء وحدهم ، واستند في هذا إلى قوله تعالى : « ... الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة » إذ فسر الفخر الرازي البشرية بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، وهذا الاتجاه في تفسير الآيتين ، قد سرى كالبرق بين المسلمين ، حتى استقر في أذهانهم أن القرآن يقرر بأن الرؤيا وحي عن الله ، وأنه يقع للأنبياء ومن إليهم من صفوة المؤمنين ، وقد تضمنت الأحاديث الكثير مما يؤيد هذا الاتجاه ، فلم يكن لمسلم بعد هذا أن يستخف بها ، ولكن اختلاطها بالنبوة قد حمهم على سلب التشريع عنها ووضعها بعد الولاية .

ولعل مردّ نزوع المسلمين إلى اعتبارها وحيًا إلهيًا ، إلى الطبيعة البشرية ، لأن إضافة الصفة الإلهية للرؤيا يسائر هذه الفطرة ، ولا يعوق التسليم بها إلا الجدل العقلي الذي لا يتمشى في كثير من الحالات مع الطبيعة في كل أهوائها ، وقد عرفت هذه الصفة شموغ لا تدين بالإسلام ، ولا بغيره من الديانات المنزلة ، بل اهتدت إليها قبل أن تعرف هذه الديانات ، حتى قرر المؤرخون بأن الكشف الإلهي في الأحلام عقيدة كل شعب ، بل كل فرد في الماضي السحيق ، وأن من العبث أن نتساءل من أين وصل الاعتقاد في الأحلام إلى اليونان مثلاً ، فالأحلام قديمة قدم العالم ، وليس لها بداية يمكن للتاريخ أن يسجلها^(١) .

ويلوح لنا أن الذين فسروا الآية القرآنية الخاصة بالوحي ، قد حملوا لفظ الوحي

(1) Bouché - Leclercq, L'histoire de la Divination 1. p. 277 - 8.

فوق ما يطيق من معنى ، ولعل هذا يقال فيمن فسروا البشرى بالرؤيا ، فعمموا بذلك وقوع الوحي لغير الأنبياء والرسل ، ولا شك أن هذا التفسير قد صادف هوى في نفوس المسلمين ، فوضموا فيضاً من الأحاديث النبوية المنحولة أملاً في تمكين الرؤيا وتأبيدها وحياً من الله .

وإذا كانت الرؤيا بدء الوحي في رسالة النبي كما ورد في حديث عائشة في باب « كيف كان بدء الوحي » في صحيح البخاري ، فإن ذلك لا يستلزم أن تكون رؤيا غير الرسول وحياً من الله ، فليس كل ماجاز له ، يجوز لغيره ، وإلا كان الناس كلهم رسلاً ... وإذا كان القرآن قد تضمن رؤى وقدمت لبعض الأنبياء وحياً إلهياً ، فإن هذا لا يقتضي وقوع مثلها لغير الأنبياء ، فمن الجائز أن يخصهم الله بغير ما يخص به سائر الناس .

والمجال يقتضينا الإيجاز في هذا الصدد ، ولكن ينبغي أن نشير إلى أننا لا ننكر إمكان تحقق بعض الأحلام على سبيل المصادفة أو الاستجابة إلى إحاء أو استهواء ذاتي أو نحو هذا مما تفصله الدراسات السيكولوجية الحديثة ، وقد كان من الحق مع هذا كله - أن نقول - إن نزوع المفكرين إلى ربط الرؤيا بالدين شيء طبيعي وقع لغير المسلمين من شعوب ، حتى قبل نزول الأديان المقدسة ، وأى شيء في تاريخ الدنيا اتصل بالمجهول ولم يرتبط في أذهان الناس بالمعتقدات الدينية .. ؟

ولعل رأينا هذا يقويه عندنا ما لاحظناه في موقف جمهور المتكلمين من الرؤيا الصادقة ، فهم أصحاب نزعة عقلية ملحوظة ، وقد أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلا حسنة ، ولكنهم يعتبرون الرؤيا خيالا باطلا ، وعلل بعض « الممتزلة » هذا الرأي بفقد شرط الإدراك ، وقيل لأن عادة الله تعالى لم تجر بخاق الإدراك في المنام^(١) ،

(١) الألبنجي في جواهر الكلام (نشر الدكتور عفيفي) .

إذ النوم ضد الإدراك ، والضدان لا يجتمعان ، وإن كان هذا التعليل لا ينفي قيام الوحي فيما يبدو لنا ، من الناحية الشكلية المنطقية المحضة .

تأويل الرؤيا :

ذهب مفكرو الإسلام إلى أن أضغاث الأحلام لا تقبل تأويلا ، ولكنهم أجمعوا على تمبير الرؤيا الصادقة ، بل جعلوا تعبيرها علما له قوانينه الشكلية^(١) ، وأصوله العامة التي لا يستقيم التأويل بدونها^(٢) . ويراد بعلم التعبير معرفة الأمور الغيبية عن طريق التخيلات النفسانية التي تقع أثناء النوم^(٣) . وهو يستلزم تفكير المرء في الصور التي وعثها حافظته مما رآه في رؤياه ، ثم محاولة إرجاعها إلى ما يشبهها من مدركات الحس التي وعثها من قبل ، ثم استخدام الخيال وانداكرة في الانتقال من شيء إلى شيء موجب له إلى آخر مؤد إليه ، وهكذا حتى يهتدى آخر الأمر إلى أول شيء كان السبب في تخيل هذه الصورة الأخيرة التي وقعت في الرؤيا^(٤) ، وبتجريد مدركات النوم عن الصور التي كساها فيها الخيال على هذا النحو ، يصل المعبر إلى حقيقة هذه المدركات^(٥) والتعبير لا يتطلب معرفة المناسبات التي بين الصور ومعانيها فحسب ؛ بل يقتضى معرفة مراتب النفوس التي تظهر الصورة في حضرة خيالاتهم ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٧ والقنوجي في أجبدي العلوم ص ٣٩٩ - ٤٠٠ يردد مايقول ابن خلدون من غير إشارة إليه .

(٢) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٢ - ١٣ وابن شاهين في الإشارات ص ٣٦٢ والسالمى في الإشارة في علم العبارة ص ٣

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٩١ ، طاشكبرى زاده في مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٤ والتهانوى في مقدمة الكشاف ص ٤٤ وقارن ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٤١

(٤) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٥) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠١

ومن أجل هذا اختلفت الصورة الواحدة باختلاف مراتب الأشخاص^(١) ، والمطلع على كتب التعبير يلاحظ أنها تحوى « جداول » أو قوائم بأسماء الأشياء التي يحتمل أن تظهر في الأحلام ، والمعاني التي يحملها كل منها ، ويلاحظ أن الرمز الواحد يحمل معاني كثيرة تختلف باختلاف الأمم والملل والأفراد ، بل قد تختلف عند الفرد الواحد باختلاف ظروفه وأحواله ، وإن كان في الرموز عنصر مشترك بين الشعوب على اختلاف أجناسها وتباين أديانها ، مما يرجع إلى وحدة الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان . وهذا الاختلاف استوجب توافر صفات كثيرة في المعبر لا يقوى على تأويل الرؤيا بدونها ، ويظهر أن المستشرق مرجليوث Margoliouth قد فاته هذه الملاحظة حتى صرح في معرض حديثه عن كتاب النابلسي في تعبير الأحلام ، أنه يثير الحيرة ويدعو إلى الاضطراب ، بكثرة ما يورده من معاني الرمز الواحد ..^(٢) مع أن أكثر المعبرين - ومنهم النابلسي - لا يذكرون المعاني التي تحملها رموز الأحلام ، إلا بعد مقدمة يعرضون فيها لأصول التعبير وقوانينه العامة .

على أن أهل التعبير لا يقنعون بالصفات التي أوجبوا توافرها في المعبر ، والقوانين التي ألزموه باتباعها ، فيقولون إن التعبير وإن كان ضرباً من الحدس والفظنة^(٣) يعتمد على الاطلاع والذكاء والحدق ، إلا أن أهله لو اعتمدوا على كتب التعبير وحدها ، عجزوا عن تعبير الكثير من الرموز ، لأن التعبير يتوقف - إلى جانب حدق المعبر - على « الفتح عليه بهذا العلم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »^(٤) ، وذهب

(١) ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٤١

(2) Margoliouth, art. Muslim Divination (Encyclopedia of Religion and Ethics).

(٣) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٤) النابلسي : تعبير الأنام ج ١ ص ٨ وابن شاهين في الإرشادات في علم العبارات

ابن خلدون إلى أن القرائن التي تعين المعبر على تعبير الرؤيا ، منها ما ينقدح في نفسه بالخاصية التي خالقت فيه ، وكلُّ ميسرٍ لما خالق له ^(١) . وصرح ابن عربي بأن العلم . بالتعبير انكشاف لا يحصل إلا بالتجلى الإلهي من حضرة الاسم الجامع بين الظاهر والباطن ^(٢) ، وأيد هذا الاتجاه كبار المعبرين ^(٣) .

نماذج من الرؤيا الصادقة ونحوها:

١ — قيل إن أم الإمام الشافعي ، رأت في منامها بعد أن حملت به ، أن « المشتري » خرج من فرجها ، وانقضَّ بمصر ، ثم تفرق في كل بلد قطعة .. ! فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذاً في مصر ، ينشر علمه في أكثر البلاد طولاً وعرضاً . فكان الأمر كما قالوا ^(٤) .

٢ — قيل إن رجلاً رأى نفسه يختم على أفواه الرجال والنساء وفروج هؤلاء ، فقال ابن سيرين في تعبيرها : إنه مؤذن ، أذن في رمضان قبل مطلع الفجر . فكان الأمر كما قال ^(٥) .

٣ — قيل إن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها ، فعبّر أبوها رؤياها ، بمرته وموت الرسول والفاروق ، ودفنهم في حجرتها جميعاً . وصحَّ بعد ما قال ^(٦) .

(١) ابن خلدون في المقدمة ص ١٧ : (٢) ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٤١
(٣) قارن الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١٣٩ والزنجشري في الكشاف ج ١ ص ٦٦١ (٤) الأبهسي : المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ١٠٨
(٥) طاشكبري زاده : مفتاح المعادة ج ١ ص ٢٧٤
(٦) الأبهسي ج ٢ ص ١٠٨

٤ — حين كان معالي أستاذنا مصطفى باشا عبدالرازق ، سكرتيراً للمعهد الدينية ، كان الشيخ سليم البشرى شيخاً للجامع الأزهر ، ومرض معاليه ، فزاره الشيخ في منامه ، وفي الصباح زابله المرض .. ! فمبرّ هذه الرؤيا أحد الذين سمعوا روايتها في هذه الجلسة ، بأن اسم الشيخ الأكبر دالّ على مضمون الرؤيا ، سليم تعبر عن السلامة — العافية — والبشرى ترمز إلى البشرى — بالشفاء .

٥ — فخر الشعرائى بوقوع كثير من الرؤى له ، يوحى بها الله عسى أن يحتاط للأمور المقبلة ، إن كانت الخيطة ممكنة ، فمن ذلك أنه كان وصياً على أبناء أخيه ، فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى في تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً في خلوته ليخرجوا منه ، فأدرك أنه أخطأ في أمره السالف ، وعدل عنه .. ! وإذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته ، وساورة الشكوك فيما سمع ، رأى في ليله من اغتاب ، يابس البياض ، فيدرك كذب المغتاب .. ! الخ (١)

٦ — وروى الرحالة « لين » E.Lane أن الإمام الشيخ المهدي ، قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة — هو الشيخ أحمد البهسى — كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير ، فسمعه يؤرخ حياة الحسين ، ويعقب قائلاً إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسينى المعروف فى القاهرة ، وكان « البهسى » يعتقد غير ذلك ، فألمه ماسع ، ولسكنه لم يمرض على الشيخ احتراماً لشهرته ، وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس ، انطلق إلى بيته ، وأقام الصلاة ودعا ربه — وهو جاث على ركبتيه — أن يريه رسول الله فى رؤيا صادقة ، يعرف منها حقيقة هذه المسألة ؛ فلما استسلم للنوم رأى أنه فى الطريق إلى زيارة المشهد الحسينى ، فلما دنا من قبته ، رأى النور يشع منها

فدخل المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه - بعد تبادل التحية - أن يقرئ رسول الله السلام ، فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فظهر بقوله : السلام عليك يا رسول الله ، وكررها ثلاث مرات والسمع يجرى على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أدن مني يا بني فقاده الشريف وأجاسه في حضرته ، فغياها الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بني . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلأ الرجل غبطة وطمأنينة ، واستأذن الرسول في أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير في درسه ، فلما سمع الرسول قصته ، طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة ، فاستيقظ من نومه ، وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه (الأمير) فلما باخ الباب دقّه بمنف أفرع سكان البيت ، ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته . ! فلما علم الشيخ بصاحب الصوت ، أدهشه مجيئه في هذا الوقت المبكر، وظنّ سوءاً ..! وأخذ البهسي - من فرط التأثر - يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام، أو يقبل يده كما جرت عادته معه . وقص رؤياه منبثاً شيخه بأن الشريف الذي كان بالباب هو الإمام علي ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر ، والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا في زيارة الحسين ..! فنهض الشيخ الأمير لثوبه ، وقال هيا بنا لزيارة الحسين ..! ولما دخل القبّة قال : السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إني أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهسي شاهدة على ذلك ، لأن رؤيا الرسول حق ... الخ (١) .

(1) E. W. Lane, The Manners and Customs Of Modern Egyptians
p. 219 - 221.

حسبنا من نماذج الرؤيا ما أسلفنا ، وقبل تحليلها ننبه القراء إلى أن تأويل الأحلام وتحليلها ، لا يكفي فيه أن تعرف أحداث الحلم ومناظره ، وإنما يتطلب التأويل معرفة الكثير عن حياة الحلم ، ولا سيما تجاربه في يومه السابق ، وقد أشرنا في حديثنا عن التعبير إلى بعض مستلزماته وأكثرها مسلم به في الدراسات السيكولوجية الحديثة ، ولكن الكثير مما تلزم معرفته ، غير متوافر لنا بصدد هذه الأمثلة ، ومع هذا فسنحاول تأويلها في ضوء معلوماتنا عنها ، موجزين على قدر الاستطاعة :

١ - أما الرؤيا التي رويناها عن أم الشافعي ، فلراجع أنها مختلفة ، إذ يكاد يكون من المقطوع به ، أنها لا تعرف «المشترى» الذي ورد اسمه في القصة ، وقد تحريتنا ذكر هذا المثال في صدر نماذجنا ، لنقول إن الكثير من الأمثلة التي وردت في المصادر الإسلامية مختلف أو مبالغ فيه ، رغبة في تأييد القول بأن الرؤيا قد تكون وحياً إلهياً . فإذا قيل إن كلمة «المشترى» هي المختلفة ، وأما القصة فصحيحة ، قلنا إن هذا محتمل ، وعندئذ يكون تأويل الرؤيا ، على الوجه الآتي :

كل أم تعلق على وليدها المنتظر آمالاً كباراً ، ولا غرابة في أن تتمثل هذه التمنيات في الحلم نوراً يشع ، ويتوزع في البلاد طويلاً وعرضاً ، ومثل هذا الحلم يقع للأهيات كثيراً ، وإن اختلفت صورته ومناظره ، والأم التي تنكر وقوع مثله لها ، تمطينا الدليل على أنها تنسى أحلامها أو بعضها ، وقد حرصت المصادر الإسلامية على رواية الحلم السالف ، لأن الشافعي إمام فذ في تاريخ الإسلام ، ولو وقع عن غيره ، وذكركه صاحبه بعد يقظتها ، لأغفل التاريخ أمره .! ويؤول مثل هذا الحلم ، بأن صاحبه تمنى أن يكون طفلها في مقبل أيامه عالماً ممتازاً ، لأن النور كثيراً ما يرمز إلى هدى العالم والدين ونحوه ، أما تحققه فأكبر الظن أنه لا يكون إلا على سبيل المصادفات .

٢ - والمثال الثاني يرينا أن الرؤيا - عند ابن سيرين - لا تدل على المستقبل دواماً ، وقد أشار إلى هذا النابلسي ، ونص على أنها تكشف المغيب في الماضي والحاضر كذلك^(١) ، وتأويل هذا المثال معقول ، والحلم فيه ترداد لخواطر جرت في الذهن أثناء اليقظة .

٣ - أما حلم السيدة عائشة ، فردّه - فيما يلوح - إلى إعجابها بهؤلاء الثلاثة ، والمظنون أن الوسوس كانت تساورها - في اليوم السابق لوقوع الحلم - بصدد موتهم المنتظر ، وتجربة اليوم السابق ، وهي توقع نزول الموت بهؤلاء الأعداء ، كفييلة بأن تنشئ ، مثل هذا الحلم ، وقد تمثلوا في أقمار ، رمزاً لنور الهداية الدينية التي كانوا يقومون بها يومذاك ، وليس غريباً أن يموت هؤلاء الثلاثة بعد ذلك ، فالموت هو المصير المحتوم لكل إنسان . بقي تحقق دفتهم في حجرتها ، وتفسير هذا - فيما يبدو لي - أنه كان استجابة من القائلين بأمر الدفن ، لما ظنوا أنه رؤيا صادقة ، فالمؤرخون يقولون إن المسلمين قد اختلفوا - بعد وفاة الرسول - في مكان دفنه ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، وكاد الرأي يستقر على دفنه في المسجد ، حيث كان يخطب ويعظ ويصلى بالناس ، ولكن السيدة عائشة نفسها هي التي حالت دون ذلك ، إذ قالت إن النبي كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجهه ، فكان يضمه مرة على وجهه ، ويكشف مرة عنه ، وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد...! فعدلوا عن دفنه في المسجد ، وعندئذ قضى أبو بكر - وهو الذي عبر رؤيا عائشة - بين الناس إذ قال : إني سمعت رسول الله يقول «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»

(١) النابلسي : تعبير الأنام ج ١ ص ٥ .

فتقرر - عندئذ - أن يحفر له مكان الفراش الذي قبض فوقه ..! (١) أما دفن أبي بكر مع الرسول ، فرجعه إلى أنه هو الذي أوصى بذلك ..! (٢) وأما دفن عمر معهم ، فرده إلى أنه هو الذي استأذن السيدة عائشة في ذلك قبيل وفاته ..!

٤ - أما حلم معالي الباشا ، فإن طريقة تأويله كانت شائعة عند المسلمين الأول ولكن التشابه بين معاني الأسماء التي يظهر أصحابها في الحلم ، والصحة والعافية للمريض ، لا يبرر جعل الأول علة للثاني .! ولعل الأصح أن يقال إن معاليه كان في ليلة الحلم ، على وشك البرء من مرضه ، والمعروف عند المحدثين من علماء النفس - بل هذا رأى فطن إليه أرسطو قديماً - أن الإحساسات الباطنية تكبر في الأحلام ، أما في اليقظة فإن مشاغلنا اليومية تصرف انتباهنا عن هذه الإحساسات (٣) ، فإحساس معاليه الباطني بدنو البرء من المرض ، كان قبل الحلم ضعيفاً غير مشعور به أثناء اليقظة وعند النوم قوى هذا الإحساس وأصبح مشعوراً به ، فكان بهذا مشاراً لحلم ، تجلى في طريقة رمزية كانت معروفة عند المسلمين كما يعرف معاليه . وليس في الحلم بعد هذا أية غرابة .

٥ - أما ما روينا عن الشمراني ، فرجعه - فيما يبدو - إلى أنه حين أصدر أمره إلى أولاد أخيه بملازمة حجرتهم ، شمر - أثناء ذلك أو بعد ذلك بقليل - أنه يقسو على أيتام ، وهذا الشعور ليس غريباً على رجل دين وتصوف ، وربما كان

(١) محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد ص ٤٩٣ - ٤ (مع ملاحظة أنه لم يشر إلى هذه الرؤيا

(٢) محمد حسين هيكل باشا : أبو بكر الصديق ص ٣٥٤

(٣) ومعنى هذا أن أرسطو الذي أنكر الرؤيا الصادقة ، قد سلم بتنبؤ الحلم ببدء الأمراض التي تكون في اليقظة غير مشعور بها . وسلم المحدثون من علماء النفس بذلك . أنظر في تفصيل هذا الرأى ، كتابنا « الأحلام » ص ٦٨ و ١٤٣ (في بيان رأى أرسطو) ، ص ٥٣ - ٥٤ و ٧٣ - ٧٤ (في بيان رأى المحدثين من علماء النفس) .

شعوره من الضعف بحيث لم يقو على صرفه عن مسأله إزاءهم ، فلما استسلم للنوم ، كبر عنده ماخطر له في يقظته ، وتمثلت له الصورة التي رآها ، فعدل عن مسأله .! أما حله الثاني فإنه يعترف في رواية له ، بأنه إذا ارتأب في كلام المغتاب وهو يستمع إليه ، رأى في منامه أن الذي كان موضع غيبة برىء الساحة ..! فالشك قائم في اليقظة ، ولا شرابة في أن يبدو الشك المتأق فيما يسمع ، يقينا بكذبه إذا نام .! ومثل هذا يقال في سائر ما يرويه مما يحسبه وحياء من الله .

٦ - بقى حلم الأستاذ « لين » E. W. Lane ، وبساطته سر طرافته ، إنه حلم صريح سافر ، وليس متنعماً في رموز تحتاج إلى تأويل ، وهو - فيما يرى بعض المحدثين من علماء النفس - تحقيق رغبة مضمغطة Suppressed Wish - fulfilment^(١) لم تشبع إبان اليقظة ، فتحققت في المنام ، هاله أن يكون رأس الحسين غير موجود في مشهده ، فصلى وطلب إلى الله أن يكشف له عن الحقيقة ؛ والأصح أن نقول إنه طلب إلى الله أن يريه دليلاً على صحة اعتقاده ، في أن الرأس موجود في مشهده ..! فكان له ما أراد . وأذعن شيخه لهذه الرؤيا ، اعتقاداً منه بأن رؤيا الرسول حق ... الخ

وينبغي أن نقول أخيراً ، إن تأويلاتنا لهذه النماذج من الأحلام ، مجرد ترجيحات لا تمنع من وجود احتمالات أخرى ، فليس يتطلب تأويل الحلم ، لاكتفاء بعرض أحداثه ومناظره ، ولا بد للمحلل من الاتصال بصاحب الحلم ، ومعرفة الكثير

(١) الرغبة المضمغطة Suppressed, fr. repressé يعمد الإنسان إلى إخفائها وعدم المجاهرة بها شاعراً واعياً ، أما الرغبة المسكبوتة repressed, fr. refoulé فإنها تسكت على غير وعى وشعور من صاحبها .

عن حياته ، وكشف المجهول من باطن نفسه ، واستكناه الخواطر التي تشغل باله ، ولا سيما ما دار منها بخلده في اليوم السابق على وقوع حله ، وغير هذا من مستلزمات فن التأويل والتحليل ، مما يعوزنا بصدد الأمثلة التي عرضناها موجزين ، وكم من حلم استلزم تأويله جاسات طوالا عند المشتغلين بتحليل الأحلام من علماء النفس ، فحسبنا ما ذكرناه ، مجرد إشارات إلى بعض اتجاهات التحليل في الأحلام .

حسبنا هذا عن موقف مفكرى الإسلام من الرؤيا الصادقة ، فقد كانت الأحلام - في شتى صورها - موضع بحث مفصل تناولنا فيه ما قيل بصددها قديما وحديثا ، فليرجع إليه من شاء^(١) .